

العلاقة بين الرجل والمرأة في العهديْن المُحمّديِّ والخليفيّ

wwww.muhammadanism.org
September 23, 2007
Arabic

The Society of Yathrib

The Relationship betwixt Men and Women
in the Time of Muhammad and his Four Successors [Caliphs]

خليل عبد الكريم

Khalīl ‘Abd-ul- Karīm

مجتمع يثرب

خليل عبد الكريم

العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المُحمَّديِّ والخليفيِّ

مجتمع يثرب

سينا للنشر ــ الانتشار العربي

الطبعة الأولى ١٩٩٧

الطبعة الثانية: أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧

محتويات الكتاب

[Blank Page]

مقدمة

في المجتمع المتحضر العلاقة بين طرفيْ النوع الإنساني هي علاقة بين رجل وامرأة أما في المجتمع البدائي فهي دافع بيولوجي بين فحل وموطوءة وفيه تجد مرادفات كثيرة للملامسة بينهما تشعرك أنها تشغل حيزاً واسعاً من تفكيرهم. أما إذا كان المجتمع بدائياً وذكورياً معاً فسوف تجد أن تلك المترادفات عبرت عن علو مكانة الرجل نقصد العلو المادي ــ عند التماس ولا تكتفي بأن تموضع الأنثى في المكان الأسفل بل إنها توحي بالتسوية بين الأنثى والدابة وذلك يتضح بجلاء في كلمات مثل: الركوب والامتطاء والاعتلاء والوطء.

* * *

وعلم الاجتماع يؤكد لنا أن تغيير أحوال أي مجتمع لا يتم بتأثير النصوص مهما كان شأوها من البلاغة والإعجاز ولكن بتغيير ظروفه المادية؛ وليس معنى ذلك إنكار أي دور للنصوص في عملية التطوير الاجتماعي ولكن: يعنى أنها تأتى مصلية[١] ــ كما أنها تحتاج إلى وقت طويل لتؤتى ثمارها خاصة إذا قُصد منها أن تقلع عادات وأنساق اجتماعية ذات جذور غوائر وقواعد راسخة وأصول ثوابت في أرض المجتمع ويزداد الأمر تعقيداً إذا كانت قد استمرت مئات السنين ــ

(١) في **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية/ صلّى الفرس في السباق: جاء مصلّياً وهو الثاني في السباق.

ويبلغ الأمر تخوم اليـــأس إذا كانت ترضى كبريـــاء الرجل وتشبع غـــروره وتروي ظمأه الدائم لـ الخنزوانة[٢].

* * *

والمجتمع البدائي مليط[٣] من الأنشطة الرياضية والفنية والأدبية التي تشغل أوقات فراغ أعضائه ومن ثم لا يجدون أمامهم منفذاً لتصريف الطاقات الحيوية لديهم إلاّ في التماس بين طرفيه يتساوى في ذلك الذكر والأنثى ومن ثم يغدو هذا إلى الفعل طقساً لا بدّ من مباشرته يومياً وإذا أغلقت المنافذ المشروعة سعي الطرفان إلى ممارسته عبر العلاقات غير المشروعة وربما كان السعي من ناحية الأنثى أكثر حثاً لأن وقت الفراغ لديها أعرض.

* * *

والأنثى في المجتمع البدائي الذكوري لطول العهد ومع مرور الزمن تستعذب سيادة الرجل عليها وترى في اعتلائه وامتطائه لها أموراً طبيعية ثم تتحول إلى حقوق تجهد جهداً شديداً في الحصول عليها وتتفنن في طرائق الوصول إليها فإذا لم تجدها في الضوء عثرت عليها في الظلام وإذا لم تطفئ عطشها في العلن فعلت ذلك في السر وإذا لم تتحصل على بغيتها لدى البعل تحصلت عليها من الخدين.

وهي بذلك تضرب عصفورين بحجر واحد الأول إشباع غريزتها الملتهبة دائماً والآخر أن تثبت لنفسها أنها أنثى بحق في مجتمع ينقسم إلى فحل وموطؤة وتغدو عملية التماهي بين قطبيه ميزاناً لقدر كل منهما فيه فكلما كان الذكر ظاهر الفحالة كبر في أعين الجميع وبالمثل كلما كانت الأنثى صالحة للتموضع أسفل الفحل عُدّ

---

(٢) الخنزوانة: هي أن يشمخ بأنفه من الكبـــر وفتح منخره ولهذا يقـــال (في أنفه خنزوانة) ــ من (كتاب الفروق) لـ أبي هلال العسكري ــ تحقيق د/ أحمد سليم الحمصي ص ٢٧٣ ــ الطبعة الأولى ١٩٩٤ ــ ١٤١٥ ــ جروس برس ــ طرابلس/ لبنان.

(٣) المليط والأملط من لا شعر له ــ من **القاموس المحيط** (لـ الفيروز آبادي).

ذلك دليلاً ساطعاً على فعاليتها في المجتمع؛ ولذلك من شارات الشرف لدى الرجال قبل الإسلام أن تكون (تحته) عشر نسوان ورأينا من الإناث من خَمَّسة آي استهلكت خمس فحول ومنذ قديم حق الرجل ضعف حق الأنثى.

* * *

ولا ينتطح عنزان في أن طلاقة الجو وحرارة الطقس تثيران غريزة التماس بين الرجل والمرأة؛ لذلك نجد هذه الغريزة في البلاد الباردة فاترة في حين أنها في الأقاليم الحارة مشبوبة مشتعلة ومتوقدة ــ وليس مصادفة أن البلاد ذات الكثافة السكنية الرهيبة تمتاز بحرارة الجو في حين أن معدلات الولادة منخفضة في الأصقاع الباردة.

* * *

تلك كانت الركائز التي توكأنا عليها في هذه الدراسة عن العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع المدينة/ أثرب إبان زمن محمد وعهود خلفائه الأربعة؛ وفي اعتقادنا أنه مجتمع شديد الخطر (القدْر) بالغ الأهمية من الضروري بحثه من أقطاره كافةً وشتى مناحيه لفهم كثير من الأمور: تتربع على رأسها (النصوص) حتى يتسنى تأويلها التأويل الأمثل وتفسيرها التفسير الأميز لأنها انبثقت في حناياه وارتبطت بأوضاعه وتشابكت مع ظروفه واتصلت بموجباته وتعلقت بأحواله وتوثقت باكراهاته؛ ومن ثم وترتيباً على ذلك ونتيجة له حملت بصماته والحق أن عجبي لا ينقضي ودهشتي لا تنفذ وحيرتي ممتدة ممن يعرضون عن التفرّس في ذلك المجتمع والتحديق فيه وتمحيصه وتأمله وتفليته[٤] في دقيقه وعظيمه في صغيره وكبيره في نحيفه وغليظه في سمينه وهزيله خاصة من جانب الذين ينادون بـ (تاريخية النصوص) وبلزوم ربطها بأسباب نزولها ومناسبات ورودها لأنها تغدو دعوى بلا دليل كامل وقضية بلا حجة مقنعة وإدعاء بلا برهانٍ دامغ.. الخ.

ولكن عندما نضع ذلك المجتمع تحت المجهر ونسلط الأضواء الكاشفة عليه ونبرزه ونقدمه كما رسمته كتب التراث ذاتها نكون بذلك قدمنا دلائل الثبوت على

(٤) في **المعجم الوسيط** لـ مجمع اللغة العربية: افتلى القوم: نظر إليهم متأملاً.

أفكارنا وطروحاتنا وساعتها سوف ينقمع المناوئ وينخنس المعارض ويتوارى المشاكس وينكسف المعاند.

* * *

العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع المدينة/ أثرب إبّان حياة محمد وزمن خلفائه الأربعة من أهم معالم هذا المجمع الذي بمعرفة أبنائه تحققت الثورة التي فجرها محمد قي القرن السابع الميلادي في منطقة الحجاز والتي تعد من أخطر الثورات التي شهدها الإنسانية منذ العصور الوسطى.

وهو المجتمع الذي موضع تجربة تلك الثورة المظفرة وشيّئها والذي يعتبره البعض النموذج الأمثل والوحيد الذي شهده التاريخ منذ بدايته حتى يرث الله الأرض وينادى بأن تحذو المجتمعات كلها حذوه وتسير على منواله وتقتفي خطواته... الخ.

ونحن لا نصادر حق أي واحد في أن يعتقد ما يشاء وأن يطالب ــ بالحسنى ــ بما يريد إنما ندعو ونلح أن تجئ معرفته بما يروجه صحيحة وقائمة على أسس موضوعية خالية من شوائب الهوى والتحيز.

وهذا الكتاب يضئ لنا جانباً هاماً في ذاك المجتمع:

العلاقة بين الرجل والمرأة ــ التي هي بلا مراء فاتحة معايير تقييم أي مجتمع ورأس حيثيات الحكم عليه.

أسسناه على أوثق المصادر التي تلقتها الأمة بالقبول بل التجلة والتقدير الذي يبلغ في حق بعضها رتبة التقديس ــ (مثل كتب الصحاح الستة).

فكل خبر أو واقعة وردت بين ثناياه أتبعناها بمصدرها بمنتهى الدقة لكي نقطع السبيل على أي خصومة باطلة.

بيد أنه إذا دُهش القارئ أو صُدم مما تحفل به صفحاته من نوازل وأحداث لم يتعود على مطالعتها في كتابات التبجيل والتعظيم والتفخيم التي ولّفها الكثيرون ومن بينهم أصحاب أسماء لوامع لها رنين صاخب ودوي زاعق فالتبعة تقع عليهم

وحدهم أما نحن فقد التزمنا المنهج العلمي الصارم الذي نحّى عنه جانباً عوارض العاطفة والتعصب.

* * *

بعد أن يفرغ القارئ من مطالعة الكتاب ــ والتي نرجو أن تكون متأنية وغير عجلى وأن يولي ما بين سطوره ومضمراته قدراً وفيراً من اهتمامه ــ سيبين له على الفور لا على التراخي أن الكتاب يساعده على استيعاب كثير من (النصوص) التي تمحورت على المرأة أو تناولت الرابطة بينها وبين الرجل أو حتى حوّمت حولهما في كل الأصعدة بلا استثناء.

إذ أن المطالعة تعطيه فرشة وتمنحه خلفية هو في مسيس الاحتياج إليهما لفهم (النصوص) الذي خاطبت أبناء مجتمع عاشوا في القرون الوسطى في منطقة مغايرة تماماً للمنطقة التي يعيش فيها القارئ.

وفي مذهبنا أنه يكفي للتصور وبالتالي للاقتناع.

فإن التصور الذي يأخذه الثاني عن الثالث لا يقاس بما لو قدم له شريط فيديو يعرض أحوال الأخير. كذلك عندما نقول إن مجتمع المدينة/ أثرب قي تلك الفترة مباين لمجتمعنا من كل المناحي فهذا القول يظل ناقصاً وقاصراً ومبهماً يحوطه الغموض ويلفه الضباب وتشمله العتمة ويعوزه التوضيح ويفتقر إلى البيان ويحتاج إلى الإظهار بخلاف ما لو أثبتنا أن نسوان ذلك المجتمع كن يحتملن ويصرّحن بذلك وكانت الواحدة منهن تملأ الدنيا صخباً لأنها اكتشفت أن زوجها عنّين لا طاقة له على ركوبها ــ ووُجد في ذلك المجتمع اغتصاب؛ وأن الصاحب الذي أستأمنه أخوه على زوجه هجم عليها ليعافسها؛ وأن البائع ينتهز الفرصة المواتية ليحتضن الزبونة المليحة؛ والخاطب لا يرى حرجاً في أن يتحسس ساقي مخطوبته ليتأكد أنها وعاء طيب للمفاخذة؛ أو التخبؤ لرؤية الأجزاء المستورة منها لمعرفة مدى صلاحيتها للوطء ومن الممكن بصبصة الفتاة الحسناء في أقدس المشاعر والأزمنة؛ أو بصبصة

نسوة الآخرين في أثناء الفتح الأعظم أو التفرّس في سوقهن (جمع: ساق) في عز استعار معركة مصيرية؛ أو مجامعة الزوجة رغم الأيمان المغلظة بعدم الإقدام على ذلك أو في أوقات يحرم فيها الفعل أو الاختلاء بزوجة آخر ورؤيتها عارية ومباشرتها (دون المجامعة) بشهادة شهود عدول ومع ذلك يعفو الحاكم عنهما ولا حتى كلمة تأنيب مع أن الفاعل حصن (تزوج محصنة) عشرات الزوجات وعندما قام بعمله المنكر كان والياً على أحد الأمصار وآخر يدخل بعذراء فيجدها مفضوضة وغيره يتزوج بكراً فتلد بعد أربعة أشهر؛ وكانت هناك مشكلة حارقة هي مشكلة (المغيَّبات) وهن الزوجات اللاتي يخرج أزواجهن للغزو؛ والفتى الوسيم القسيم الذي تعشقه نسوة يثرب وتتمناه إحداهن وتنشد شعراً بصوت مرتفع: ليتها وذاك الشاب المليح يضمهما سرير وبينهما زجاجة خمر معتق فيسمعها الخليفة فيأمر بحلق شعر الفتى الجميل حلاوة فيتضاعف تولّه الأثربيات به فلا يجد الحاكم حلاً سوى نفيه وتغريبه عن القرية كلها.

وحليف أحد البطون يتبع نساء ذلك الحي خاصة زوجات الشيوخ أو المرضى الضعاف حتى يضبط مرتين وفي كل مرة يأتي المولود شبيهاً له ومخالفاً لسحنة الزوج ــ فيتلاعن الزوجان ولا تمس شعرة فيه.

هذه مجرد أمثلة وغيرها العشرات ولكل خبر سنده ولكل واقعة مصدرها... وهي مصادر لا ترقى إليها ذرة من شك ولا يماري فيها إلاّ المعاند اللجوج.

نعود إلى سياق الحديث ــ الذي قطعته ضرورة ضرب الأمثلة: ــ

عندما يحيط القارئ بذلك كله علماً يغدو تصوره عن ذاك المجتمع مكتملاً وواضحاً كأنما عاش بين جنباته وخالط أفراده وقضى معهم حياته وعاين ببصائره أحوالهم وبذلك تتحقق عدة مقاصد حيوية أهمها ثلاثة: ــ

الأول: ليحكم بنفسه على ذلك المجتمع: هل هو مثالي ونموذجي لم ترَ له البشرية شبيهاً ولا نظيراً منذ دبت الحياة على وجه الأرض وحتى قيام الساعة أم لا.

الثاني: تقديم العون الحقيقي لفهم النصوص فهماً سديداً فعندما يطالع مثلاً الوقائع الخاصة باللعان يستوعب المبنى والمعنى ولا يكتفي بالأول كما يفعل الكثيرون ــ

ولا مشاحة أنه عندما ما لا يقرأها يأتي تصوره لِ (اللعان) خاطئا.

الثالث: وهو مترتب على المقصد الثاني وهو ترسيخ قاعدة (تاريخية النصوص) وربطها بأسباب نزولها ومناسبات ورودها وإرجاعها إلى ظروف منشأها.

وبذلك نكون قد قدمنا الحجج البواهر والبراهين السواطع والأدلة الرواسخ على صحتها وثبوتها وهو ما كانت تفتقر إليه حتى الآن.

فإذا وفقنا إلى الوصول لهذه القصود يكون الكتاب قد أتى بثمرته المرجوة.

خليل عبد الكريم

[Blank Page]

١

مجتمع يثرب قبل الإسلام

كان مجتمع يثرب قبل الإسلام مجتمعاً أمياً ساذجاً ونعني الوصف اللغوي لا الاصطلاحي[١]، ولم تكن فيه مجالات ثقافية أو فنية تثري الوجدان أو تصقله ــ باستثناء دائرة الشعر وهي ضيقة ومحدودة ــ كمجتمع مصر القديمة إذ كان الناس فيه مشغولين بأمور متنوعة منها:

النشاط الديني البالغ التعقيد في المعابد وساحاتها وفنون العمارة والنحت والتصوير وإقامة التماثيل والمسلات واللوحات الجدارية، وفي العلوم وأبرزها: الطب والرياضة والعلوم التطبيقية، هذا بخلاف حِرَف المعيشة: الزراعة والتجارة والصناعة؛ أو كمجتمع اليونان القديمة حيث كانت الصفوة مشغولة بالمحاورات الفلسفية والرياضيات، والعامة تنصرف إلي مشاهدة المسرحيات والاحتفاليات والمهرجانات والمسابقات الرياضية المتنوعة. في المجتمع الأمِّيِّ الساذج كمجتمع يثرب قبل إعلان محمد لرسالته؛ تشغل العلاقة بين الرجل والمرأة مساحة وسيعة لدى أفراده؛ خاصة مع حرارة الطقس وطلاقته وامتيازه بقدر من الجفاف مما يساعد على فزوزة[٢] هذا الضرب من النزوع[٣] لدى الجنسين.

وليس من قبيل المصادفة أن نجد لهذا النشاط في لغتهم كثيراً من المترادفات يلوكونها ويتداولونها بكثرة تشعرك بأنهم يجدون لذة ومتعة وهم يرددونها بينهم منها على سبيل المثال:

المباضعة، الملامسة، المضاجعة، المقارفة، المفاخذة، المباطنة، المعاسفة، المجامعة، المراودة، المباشرة، المخاذنة، المناكحة والمواقعة وهذه الكلمات أساسها الفعل الرباعي فَاعَل مفاعلة وهو يعني اشتراك طرفين في الإتيان بالعمل مثل: المحاربة والمقاتلة والمصارعة.. الخ.

بخلاف مصادر أخرى مثل: الرفث واللمس والإتيان والركوب والاعتلاء والامتطاء والوطء وهذه جذرها ثلاثي: ركب، لمس، وطأ، أتي.. الخ.

وهذه الأخيرة تركز على دور الرجل وإبرازه فهو الذي يرفث ويلمس ويأتي ويركب ويعتلي ويمتطي ويطأ وهي أنسب لذلك المجتمع الذكوري. ومن المعلوم أن اللغة هي التعبير الأمثل عن حالة المجتمع التي تنبثق منه رقياً وانحطاطاً وهي أبلغ دلالة وأفصح إبانة من الملابس والمباني والمساكن ووسائل الانتقال.

فعندما تَحْمل لغة عشرات الكلمات الدالة على الفعل الذي يُمارَسُ بين الرجل والمرأة فهذا يقطع بأنه (=الفعل) يحتل بؤرة اهتمام ذكور وإناث ذلك المجتمع الذي أفرز تلك اللغة.

كان ذلك إذن هو المستوى الحضاري لـ «المجتمع اليثربي» وكان ذلك أيضاً هو مركز انشغال بال اليثاربة رجالاً ونسوة في الربع الأول من القرن السابع الميلادي.

* * *

وعندما هاجر محمد إلى «يثرب» عاش في حنايا ذلك المجتمع واندمج فيه وحثّ الذين هاجروا قبله أو معه أو بعده على الاختلاط بأهله؛ كما رأينا في «المؤاخاة» بين الوافدين الذين سمَّاهم «المهاجرين» واليثاربة الذين سماهم «الأنصار» تطبيقاً لخطته التي أخذ ينفذها بدأب وإحكام شديدين في قطع صلة أتباعه بالفترة السابقة ورميها في مربع النسيان؛ وصبغ معتنقي دعوته بـ «الصبغة الإسلامية» بما في ذلك أسماء بعضهم أو كثير منهم والأماكن التي كانوا يعيشون فيها أو يمرون بها؛ ولم يكتفِ بتغيير اسم اليثاربة «الأوس والخزرج» إلى «الأنصار» بل غيَّر اسم قريتهم من «يثرب» إلى «المدينة» وحذَّر من استعمال الاسم القديم وفرض جزاءً على من يخطئ فينطق به، حتى توارى وأصبح ذكرى عابرة. ولم يكن محمد ملكاً أو سلطاناً؛ ولذلك لم يُؤثَرْ عنه أنه تعالى على مجتمع يثرب أو نفر منه أو تهكم عليه بل اختلط بالفاعلين فيه من الدرجات كافة وعاشرهم معاشرة كريمة؛ ومن ثم وبعبقريته الفذة أحاط به وبخباياه وعرف على الفور لا على التراخي محط تفكير اليثاربة من الرجال والنسوان ونعني به العلاقة بينهما وأدرك أن الوافدين عليه سيغمرهم طوفانه خاصة وأن المجتمع المكيّ الذي نشأ فيه غالبيتهم يتشابه إنْ لم يكن يتماثل حذوك القذة بالقذة ــ بالمجتمع اليثربي وكان الرباط فيه بين الجنسين أيضاً على الدرجة عينها من التوقد والتوهج.

من هنا حاول محمد معالجة هذا النسق الاجتماعي الراسخ بطرق شتى منها: التشجيع على الزواج أو النكاح ــ وهي تسمية لها مدلولها العميق خاصة في ذلك المجتمع الذي ابتدعها ــ تشجيعاً يدعو إلى الدهشة الوفيرة؛ فهو مرة يقول لطالب الزواج (ابتغِ ولو خاتماً من حديد) ومرة أخرى يقول (زوجتك إياها بما معك من قرآن)[٤].

وعندما يأتي إليه أحد صحابته يستعينه على إتمام نكاحه:

(فيسأله: وكم تصدقت؟ فقال: مائتي درهم يا رسول الله؛ قال: سبحان الله؛ لو كنتم تأخذون من بطن وادٍ ما زدتم؛ والله ما عندي ما أعينك به)(٥). وثورة محمد أو غضبه مردُّها أن ارتفاع المهور يحدُّ من فرص الزواج (النكاح) وبالقدر عينه يشجع على العلاقات المنحرفة التي قاومها محمد بكل طريقة. ولهذا نراه يتلو قرآناً يغلِّظ عقوبة الزنا وتجيئ مطابقة لمثيلتها في كتاب اليهود المقدس «التوراة» رجم المحصن وجلد غير المحصن مائة جلدة. وكان للقرآن في نفوس مَنْ دخلوا دين محمد رهبة شديدة ولآياته قداسة ما بعدها قداسة؛ ولذلك سنجد أنه في المشكلات العضال كان فصل الخطاب فيها يأتي عن طريق آيات يقرؤها محمد على الصحابة فما إنْ يسمعوها حتى يذعنوا لها وللحل الذي حملته على الفور ودون معارضة أو أقل قدر من التمرد؛ منها: كيفية التصرف في أسارى معركة بدر الكبرى (أول معركة حاسمة مع صناديد مكة) وطريقة توزيع الغنائم فيها بعد أن اختلفوا عليها اختلافاً كبيراً.

ولقد حسم القرآن نزاعات متعددة بين أتباع محمد ولولاه لحدثَتْ انشقاقات خطيرة بين صفوفهم مثل:

مسألة المواريث وعلى الأخص ميراث المرأة (أماً وبنتاً وزوجة..) ومثل الاصطدام الذي وقع بين الأوس والخزرج حول مَنْ تولى كبر حديث الإفك حتى إن اثنين من كبارهم تبادلا عبارات الرمي بالنفاق (تهمة أشد لعنةً من الكفر وأقسى عقوبةً فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار كما في القرآن وهناك بعض المشكلات أقل أهميةً ــ وأيضاً ــ حُسِمَتْ بالآيات القرآنية مثل سرقة الأبيرق والظهار.. الخ.

نعود لسياق الموضوع فنقول إن محمداً في سبيل علاج جريمة الزنا قرأ قرآناً حمل العقاب الصارم لكل من يقارب تلك العلاقة المحرمة لكل من طرفيها، ولكنه عاد بعد حين وقال إن الآية التي نصَّت على رجم الزاني المحصن قد نُسخت تلاوتها فحسب ولكنْ ظل ساري المفعول أي أنها رُفعت من المصحف فلم يعد المسلمون يجدونها مكتوبةً فيه، ولكنه فرض واجب عليهم أن يطبقوه على المخالفين المرتكبين لها بدون هوادة.

يقول عمر بن الخطاب، كنا نقرأ في القرآن «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» ثم نسخت قراءتها وبقى حكمها.

ولم يكتف محمد بقراءة آيات من القرآن في شأن تحريم العلاقات الفالتة من قيد الزواج أو عقدة النكاح وعقاب مَنْ يقدم عليها؛ بل هو نفسه أصدر أحاديث تُبَشِّعُ تلك العلاقات وتُنّفر منها بل ومن مقدماتها بدايةً بالنظرة وكانت لأحاديث محمد قدسية عند مَنْ أتبعه على ديانته وإن كانت لا تصل إلى مرتبة قداسة القرآن، إلاَّ أن المسلمين احترموها وبجلوها وأطاعوا ما تأمر به وانتهوا عما تنهي عنه لأن القرآن قَرَنَ طاعة الله بطاعة محمد.

وكان استعمال محمد لأحاديثه هو كسلاح يفلٌ به شوكة العلاقات الجوانح أوضحَ ما يكون في معضلة اجتماعية من أعقد المشاكل الاجتماعية التي صادفته في مجتمع يثرب وهي «مشكلة المغيَّبات» وهن الزوجات اللاتي يشترك أزواجهن في الغزوات والسرايا والبعوث والتجسس وعمليات التصفية الجسدية لبعض الأعداء ولهدم الكعبات وبيوت العبادة والأصنام.. الخ.

فهؤلاء الزوجات وغالبيتهنَّ العظمى شابات كنَّ يتشوقن إلى الوطء والمفاخذة إبّان غياب أزواجهن ــ ولم يكن الإسلام بأحكامه المثالية قد تمكَّن من بعد من النفوس لا في الرجال ولا في النسوان ــ وفي الوقت نفسه لم يكن كل رجال يثرب أو شبابها يخرجون للغزو بل يبقى منهم المئات وليس عندهم ما يشغل أوقات الفراغ. وكما قلنا كان هذا الأمر يستغرق جُلَّ اهتمامهم، ومن ناحية ثالثة كان على محمد أن يضمن للخارج (في الغزو أو غيره) تغطية مسكنه وسلامة إنائه حتى يرجع وإلاّ أحجم الرجال عن الانخراط في الغزوات والسرايا والبعوث... خوفاً على بيوتهم؛ وإحجام الرجال عن ذلك أمر بالغ الخطورة لأنَّ الجانب الحربي أو العسكري من الجوانب التي لا غنى عنها لمحمد بأي حال من الأحوال سواء لضمان الأمان للدولة القرشية التي أقامها في يثرب أو لتنفيذ الخطة المرسومة المدروسة وهي السيطرة على شبه الجزيرة العربية كلها وإذعانها لزعامة محمد وقيادته ولعل ذلك تحقق العام التاسع الهجري وهو ما عُرفَ «بعام الوفود».

وسوف نرى عندما نتولى «مشكلة المغيَّبات» بالدراسة والتوثيق أن أحاديث محمد بشأنها مالت إلى التشديد ومضاعفة العقاب مما يقطع بعمق تلك المشكلة وأنها لم تكن أمراً عارضاً.

٢

مجتمع الصحابة

إنّ سنن الاجتماع ترفض أن تتغير الأنساق الاجتماعية في مجتمع معين وخاصة تلك التي استمرت مئات السنين، في بضعة أعوام؛ قد تنجح دعوة في تهذيب عشرات من المحيطين بالداعية ولكنَّ القاعدة الشعبية العريضة تظل محتفظة بأنساقها وعاداتها، ولا تتغير عندها إلاَّ إذا تغيرت ظروفها المادية مثل: طرق الإنتاج وأدواته ووسائله، بل إن بعض الملتفين حول صاحب الدعوة تغلب عليهم أعرافهم وطبائعهم المركوزة في أعماق نفوسهم والتي شبوا وشابوا عليها قبل اتصالهم به أو اتصاله بهم خاصّة تلك التي تتعلق بالنوازع الطبيعية وفي أحيان كثيرة يفزعون إلى الداعية معترفين بمقارفتهم لما نهى عنه، وهو يتسم بالحلم وسعة الصدر وبُعد النظر والفكر السديد والرأي الصائب فيعرف أن الطبع غلاّب وأن النوازع البشرية لها هيمنتها فيغفر ويسامح ويتجاوز وينصح في رفق لأنه يدرك أنه حتى اللزيقون به بَشَرٌ وأنهم عاشوا غالبية عمرهم في مجتمع له موجبات معينة وأنه من أعسر العسر التخلص منها ما بين عشية وضحاها ــ ولا يساق دفعاً لذلك في حالتنا موضع البحث أنَّ

المجتمع اليثربي دخله عامل جديد وهو دراسة القرآن وأحاديث محمد، والذي يتولى الردَّ على هذا الدفع: كتبُ السيِّرِ والتّواريخ التي أخبرتنا أن الاشتغال بهذه العلوم اقتصر على عدد محدود من صحابة محمد: (في مسلم والبخاري عن أنس بن مالك قال: جَمَعَ القرآنَ على عهد محمد ــ ﷺ ــ أربعة كلهم من الأنصار: أبّي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد؛ قلت لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد أبنـــاء عمومتي)[٦]؛ وحتى إذا أضيف إليهم (عثمان وعليّ وتميم الداري وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص)[٧]، وكان معني ذلك أنَّ مجموعَ من جمع أي حفظ القرآن تسع أو عشر أنفس في حين أن عدد الصحابة كان مائة ألف وأربعة عشر ألفاً (قال أبو زرعة:... قُبِضَ رسولُ الله ــ ﷺ ــ ومائة ألف وأربعة عشر ألفاً ممن روى عنه وسمع منه قيل: يا أبا زرعة هؤلاء أين كانوا وسمعوا منه؟ قال: أهل المدينة وأهل مكة وما بينهما والأعراب ومن شهد حجة الوداع)[٨].

فإذا كان عدد الصحابة مائة ألف وأربعة عشر ألفاً ولم يجمع القرآن منهم في حياة محمد سوى عشرة فقط ــ ألا يؤيد ذلك وجهة نظرنا؟ أما أحاديث محمد فمن المتفق عليه أن مَنْ كان يجمعها اثنان فقط هما: أبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص والأخير كان يكتب.

وحتى تكون لدى القارئ صورة صادقة عن هذا الأمر نورد بعض الأخبار ــ الموثَّقة ــ في هذا السياق:

١ ــ (قال بعض الأئمة: مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن)[٩]. وعبد الله بن مسعود معدود بين علماء الصحابة وخاصة في مجال القرآن وعلومه ولذا كان مُغْضَباً لاستبعاده من اللجنة التي كوَّنها عثمان لنسخ «المصحف الإمام» والتي ضمت زيد وكان ابن

مسعود يصيح متوجعاً أو يتوجع صائحاً (يا معشر المسلمين أعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولاه رجلٌ والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر)[١٠].

فإذا كان صحابي مثل ابن مسعود لم يختم القرآن فما بالك بغيره!!

أما عن أحاديث محمد: ــ

٢ ــ (قال أبو هريرة: إنكم لتقولون مالمهاجرين لا يحدثون هذه الأحاديث عن رسول الله ــ ﷺ ــ وإن أصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم أرضوهم والقيام عليها وإني كنت إمرءاً مسكيناً ألزمُ رسولَ الله ــ ﷺ ــ على مِلء بطني وكنت أكثر مجالسة رسول الله ــ ص ــ أحضر إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا)[١١]. وفي رواية: (كان المهاجرون يشغلهم الصفق في الأسواق (أي التجارة) والأنصار العمل في الحيطان (أي زراعة كرومهم وبساتينهم) وفي رأينا أنها أدق لأنها تناسب حال الفريقين فالمهاجرون أصحاب تجارات والأنصار أصحاب زراعات. هذه شهادة واحد من أعلام الصحابة تقطع بأن المهاجرين كانوا في شغل بالمتاجرة والأنصار تستغرق أوقاتهم أمور الزراعة:

فإذا كان هذا حال أعيان الصحابة فما هو حال العامة؟

ولعل مما يكمل شهادة أبي هريرة الخبر الذي يذكر أنّ عمر بن الخطاب كان له جار من الأنصار وكانا يتناوبان الاهتمام بأرضيهما فيتولاهما أحدهما يوماً وينزل الأخر إلى محمد وفي اليوم التالي يحدث العكس حتى كان يومُ سمع فيه الأنصاري أن محمداً اعتزل نساءه التسع فسارع إلى إبلاغ عمر بذلك ففزع فزعاً شديداً لأن ابنته الكبرى حفصة كانت من بينهن ولم تكن ذات حظوة مثل التي نالتها ابنة أبي بكر:

٣ ــ (عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ عن عمر قال كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على النبيِّ ــ ص ــ ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره وإذا نزل عمل مثل ذلك؛ فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته فضرب بابي ضرباً شديداً فقال: أثمّ هو؟ ففزعت فخرجت إليه فقال حدث أمر عظيم... فدخلت على حفصة فإذا هي تبكي...)[١٢].

فهذا هو عمر بن الخطاب وهو من «مجلس العشرة المبشرين بالجنة» الذي يشكّل «مجلس شورى محمد» والذي حلّ محل «ملأ قريش» الذي كان يحكم مدينة القداسة قبل الإسلام، كان يقضي نصف وقته في أشغاله الخاصة، فما بالك بمن هو دونه رتبةً وأقل لزوقاً بمحمد وأبعد صلة منه؟!!

وابنه عبد الله بن عمر له درجة رفيعة بين أصحاب محمد، تحدثنا الأخبار أنه أستغرق أربعة أعوام كاملة ليحفظ سورة البقرة، ولا شكَّ أنه كان يتمتع بما يسمي علماء النفس «الذاكرة الحرفية» وهي التي تحفظ النَّصَّ الذي تسمعه أو تقرؤه حرفياً مثله في ذلك مثل باقي أقرانه؛ لأنَّ المجتمعات الأمية تعتمد على التلقي والحفظ لأنَّ وسيلة إيصال المعلومات أو العلوم هي المشافهة وهنا يبرز دور «الحافظة» أو «الذاكرة الحافظة». حتى في أيامنا هذه نجد الأمي يعتمد على ذاكرته أكثر من القارئ الكاتب الذي يعتمد على التدوين، وليس معنى ذلك أن عبد الله بن عمر كان أمياً ولكننا نتحدث عن المجتمع الذي نشأ فيه.

إذن فما الذي جعل ابن عمر يستغرق أربعة أعوام ليحفظ سورة واحدة هي سورة البقرة في حين أننا نرى ونسمع عن أطفال دون العاشرة

يحفظون القرآن كله!!! العلة في ذلك بلا مراء هي انهماكه في العناية بأعماله شأنه في ذلك شأن سائر المهاجرين الذين تحدث عنهم أبو هريرة فيما سلف.

وهذا هو نص الحديث أو الخبر الذي نقل إلينا استغراق عبد الله بن عمر ــ أربعة سنوات ليجمع (= ليحفظ) سورة البقرة وحدها:

٤ ــ (عن ميمون أن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ تعلَّم سورة البقرة في أربعة سنين)(١٣).

هذه بعض الأخبار وكلها موَّثقةٌ ــ قدمناها كأمثلة فحسب تقطع بأن ما جاء به محمد من علوم كان تلقيها ودرسها وجمعها أو حفظها مقتصراً على عدد محدود من صحبة ومنحصراً داخل مسجده؛ فضلاً عن أن المدة التي قضاها في يثرب لا تزيد على عشرة أعوام إلاَّ ببضعة شهور وهي مدة قصيرة للغاية لا تكفي لتغيير أعراف القاعدة الشعبية العريقة وعاداتها في يثرب. ولذلك لم يكن مفاجأة أن تحفل دواوين السنة وكتب السِّيَر والتواريخ وعلوم القرآن مثل أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وتفسير القرآن.. الخ بكم هائل من أخبار عن علاقات غير مشروعة مثل:

الاغتصاب والزنا والدخول على المغيَّبات، وتجاوز الأوامر والنواهي الصريحة مثل الجماع في نهار رمضان وفي الإحرام في الحج وأثناء حيض الزوجة أو استحاضتها.

وتلك التي لا تصل إلى حد اللامشروعية ولكنها تتنافى مع الحد الأدنى من الشعور الإنساني السويِّ مثل مجامعة جارية أو زوجة في ليلة وفاة زوجة أخرى وفضح الزوجة لزوجها العنّين على رؤوس الأشهاد حتى عرفت القرية (يثرب) كلها بالأمر وتصرّ على طلب الطلاق لأنها لا

تطيق الصبر على المجامعة والمفاخذة ولا تضع في اعتبارها أنْ تظل معه ولو لمدة يسيرة عسى أنْ تكون عنته أمراً عارضاً أو راجعة لعامل نفسي قد يزول بعد قليل!!!

واعتراف امرأة أو أكثر أنها رأت في الحُلم زوجها ركبها وظل يدعكها حتى ارتوت وأنزلت فما الحكم: هل تعتبر تلك جنابة فتغتسل منها؟!!

وأخرى تصيح بأعلى صوتها حتى يسمعها من يسير في الطريق متمنيةً أن تغيب في أحضان فتى جميل وبينهما قنينة خمر معتقة لتتضاعف لذتها وتزداد متعتها!

وثالثة يروق لها أجير زوجها فترتمي بين ذراعيه ولا تتركه إلاّ بعد أن يقضي لها وطرها فيكتشف زوجها ذلك فيشكوهما!

ورجل تأتيه امرأة تبتاع (تشتري) منه تمراً فيحضنها ويقبلها!

وآخر وفي المشاعر المقدسة ينتهز فرصة نوم امرأة فيعتليها غير عابئ بحرمة الزمان أو المكان.

وثالث يأتمنه صاحبه على أهل بيته عند سفره ليراعيهم ويقضي حوائجهم فما أن يبعد حتى يهجم الصاحب على الزوجة منتوياً اغتصابها!!!

ورابع يقابل امرأة كانت بغياً فتابت وأقلعت فيراودها عن نفسها!

وفتى حسن الوجه جميل الطلعة فتن نساء يثرب فأمر به الحاكم فحلق شعر رأسه فازداد بهاءً فتضاعف وَلَهُ اليثربيات به فنفاه. وهكذا وهكذا.

عشرات الصور التي حملتها كتب تلقتها «أمة الإسلام» بالقبول والتجلّة أي لا مطعن عليها ــ تقطع بأن «مجتمع يثرب» لم يتغير لا في قليل ولا كثير وأن العلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة ذكر وأنثى وأنها كانت المحور الذي يدور حوله ذلك المجتمع وأن محمداً بذل جهوداً تفوق طاقة البشر ليتسامى ذلك المجتمع بها ولكن لرسوخ ذلك النسق الاجتماعي وتجذّره وضربه حتى الأعماق فيه هذا من جانب ــ ولقصر المدة التي قضاها محمد بين جنباته من جانب ــ ظل ذلك المجتمع على حاله ولم يتغير إلاّ بنسبة ضئيلة.

[Blank Page]

٣

المرأة في مجتمع يثرب

ليس أدلّ على أهمية التماسّ بين الذكر والأنثى في مجتمع يثرب من أن نورد أمثلة لما كان يحدث في هذه الدائرة ــ في ذلك الوقت ــ من واقع أخبار موثَّقة نقلتها إلينا كتبٌ لا سبيل للطعن عليها بأي حال.

ونبدأ بأبشع صورتيْن في هذا المجال: الاغتصاب والشروع فيه:

ــ (عن أسباط بن نصر عن سماك بن علقمة بن وائل عن أبيه وائل بن حجر، زعم أن امرأة وقع عليها رجلٌ في سواد الصبح وهي تعمد إلى المسجد فاستغاثت برجل مرّ عليها وفرّ صاحبها (أي الذي وقع عليها) ثم مرّ عليها قوم ذوو عدة فاستغاثت بهم فأدركوا الذي استغاثت به وسبقهم الأخر، فجاءوا يقودونه إليها فقال: إنما أنا الذي أغثتك وذهب الأخر فأتوا به رسول الله ــ ﷺ ــ .. الخ)[١٤].

وباقي القصة أن محمداً أمر برجمه ولكن استيقظ ضمير الجاني (الفاعل الأصلي) فاعترف وبرئ الآخر الذي أغاثها.

فهنا امرأة تسعى لصلاة الفجر ولكن ذلك لم يمنع الرجل من اغتصابها ونرجح أن ما كان يساعد على سرعة المباشرة سواء في هذا الخبر أو غيره مما سوف نسطره أنهم رجالاً ونساءً لم يكونوا يرتدون ملابس داخلية لأنهم كانوا يجهلونها تماماً خاصة السراويل ولم يكن يعرفها إلاّ أقل القليل منهم.

(حدثنا الحسن بن عبد الملك بن ميسرة عن النزال بن سيرة قال:

بينما نحن بـ «منى» مع عمر ــ رضي الله عنه ــ إذ امرأة ضخمة على حمار تبكي قد كاد الناس أن يقتلوها من الزحمة عليها وهم يقولون لها: زنيت.. زنيت.

فلما انتهت إلى عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: ما شأنك إن امرأة ربما استكرهت؟

فقالت: كنت امرأة ثقيلة الرأس وكان الله يرزقني من صلاة الليل فصليت ليلة ثم نمت والله ما أيقظني إلاّ رجل قد ركبني ثم نظرت إليه معقباً ما أدري مَنْ هو مِنْ خلق الله ــ فقال عمر: لو قتلت هذه خشيت على الأخشبين النار ــ والأخشبان الجبلان المطبقان على مكة وهما أبو قبيس والأحمر)[١٥].

امرأة من قوَّامات الليل وفي أقدس الأماكن وأقدس الأزمان تؤدي أقدس الشعائر كل ذلك لم يحل دون الوثوب عليها واغتصابها.

ــ (وقال في رواية الكلبي أن رجلين أنصارياً وثقفيا آخى رسول الله ــ ﷺ ــ بينهما فكانا لا يفترقان، فخرج رسول الله ــ ﷺ ــ في بعض مغازيه وخرج معه الثقفي وخلّف الأنصاري في أهله وحاجته وكان يتعاهد أهل الثقفي، فأقبل ذات يوم فأبصر امرأة صاحبه قد اغتسلت

وهي ناشرة شعرها فوقعت في نفسه فدخل ولم يستأذن حتى انتهى إليها فذهب ليقبّلها فوضعت كفها على وجهها فقبل ظاهر كفها ثم ندم واستحيا فأدبر راجعاً فقالت: سبحان الله خُنت أمانتك وعصيت ربك ولم تصب حاجتك...)[١٦].

هذا اليثربي لم يعبأ بمؤاخاة محمد بينه وبين الثقفي وأنهما أصبحا كالأخوين لا يفترقان؛ ولا أن الثقفي خرج مجاهداً في سبيل الله، فما أنْ رأى زوجته قد اغتسلت ونشرت شعرها حتى نسى ذلك واقتحم عليها منزلها ناوياً اغتصابها لولا أنها كانت عفيفة فصدته ووبخته.

هذا الخبر يؤكد ما ذكرناه من أنَّ الأنساق الاجتماعية المتمكنة في النفوس من أعسر العسير أن تزول في بضع سنين وبمجرد قراءة أو سماع نصوص ومواعظ.

ـ (قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت آية (والذين إذا فعلوا فاحشة) في نبهان التمَّار، أتته امرأة حسناء باع لها تمراً فضمها إلى نفسه وقبلها ثم ندم على ذلك فأتى النبي ـ ﷺ ـ وذكر له ذلك فنزلت هذه الآية)[١٧].

هذا التمَّار (بائع التمور) انتهز فرصة خلوته بالمرأة الحسناء التي جاءت تعامله فهجم عليها واحتواها بين ذراعيه وقبَّلها ويبدو أنها قاومته فاستحى من نفسه وندم على فعلته الفاحشة.

ـ (عن علقمة والأسود عن عبد الله بن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ ـ فقال يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها دون أن آتيها وأنا هذا فاقضِ فيّ ما شئت قال: فقال عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك فلم يرد عليه النبي ـ ﷺ ـ

فانطلق الرجل فأتبعه رجلاً ودعاه فتلا عليه الآية (أن الحسنات يذهبن السيئات) فقال: يا رسول الله هذا له خاصة؟ قال: لا بل للناس كافة)[١٨].

ونذكّر بما قلناه إن الداعية يصبر ويتسامح ويتجاوز ويفتح باب التوبة والإنابة ويتلو على الرجل المخالف آية لا تقنطه بل تعطيه الرجاء ما دام لم يقترف بما يوجب توقيع الحد عليه ــ لماذا؟

لأنَّ محمداً يعرف أن هؤلاء سلخوا من أعمارهم شطراً كبيراً في مجتمع تستعر فيه علاقة الذكر بالأنثى والأنثى بالذكر على السواء وأن هذا النسق من السلوك لن يختفي في عقد من السنين ولا أن الفاعلين في ذاك المجتمع سيقلعون لمجرد سماع موعظة بليغة!

وتتكرر المخالفات من أفراد ذلك المجتمع فلا يقابلها محمدٌ إلاَّ بمزيد من سعة الصدر والعفو:

ــ (حدثنا سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ــ ص ــ فذكر ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية (أقم الصلاة.. إلى آخر الآية) فقال الرجل إليَّ هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتي)[١٩].

إن محمداً أدرك أنَّ الجنوح مستمر وسلسلة الأخطاء والخطايا ممتدة وأن القاعدة الشعبية العريقة واقعةٌ لا محالة تحت سلطان الأعراف والقيم والتقاليد التي درجت وشبت وشابت عليها وأن من الأصلح فتح باب التوبة فقرأ عليهم آية تخبرهم أن إقامة الصلاة والإتيان بالحسنات يمحوان تلك الآثام التي يمارسونها في سهولة ويسر باعتبار أنها جزء من نمط الحياة الذي يحبونه.

ــ (عن عبد الله بن مغفل قال: لقي رجل امرأة كانت بغيّاً فجعل يداعبها حتى بسط يده إليها فقالت: مه، إن الله قد أذهب الشرك فتولّى فأصابه الحائط فشجه فأتى النبي ــ ﷺ ــ فأخبره فقال:

أنت عبد أراد بك خيراً وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا)[٢٠].

هذا الصحابي يداعب البغيَّ السابقة ثم يبسط يده إليها بادئاً بما في نفسه أنه ينتهي بهما إلى المواقعة ولكنها تصده صداً عنيفاً وتذكّره بأن ذاك كان أيام الشرك فيؤوب خزيان حتى لا يبصر جداراً أمامه فيشجّه؛ ولما ينهي الأمر إلى محمد لا يعنفه بل يرفق به ويعلمه أن الله أراد به خيراً.

هذه بعض أمثلة على ما كان يقع من حوادث اغتصاب أو شروع فيه، ليس من بينها واحد مستخرج من مصدر مشكوك فيه أو (مضروب) أي مغموز فيه، وهي تقطع بأن «المجتمع اليثربي» رغم وجود محمد بين ظهرانيه فإن نسق التصاق الذكر بالأنثى ظل كما كان مشتعلاً متوهجاً. ولكن الذي يلفت النظر بشدة هو موقف محمد الذي اتسم بغاية الرفق والتسامح والعفو والتجاوز لأنه أدرك بثاقب بصيرته النفاذة أن أفراد ذلك المجتمع من المستحيل أن يتغير سلوكهم سريعاً.

ومن البديهي أن نذكِّر أن تلك الأفعال لم تصل إلى ارتكاب ما يستوجب توقيع الحد باستثناء واقعة اغتصاب المرأة التي كانت في طريقها لأداء صلاة الفجر إذ عفا عن الجاني لأنّه أكبر فيه شجاعته إذ تقدم طائعاً مختاراً معترفاً بجرمه بعد أن رأى بريئاً سوف يدفع ثمن فعلته الشنعاء.

«وُفِّقتْ مدرسة التحليل النفسي إلى حد كبير في تفسير الأحلام.. وقالت: إن الحُلم هو دائماً إرضاءٌ لرغبة مكبوتة.. فثَّمت رغبات

أخرى قد تتخذ من الحُلم سبيلاً وهمياً إلى إرضائها لأنها لا تجد في عالم الواقع ما يرضيها»[٢١].

إذن من أهم وظائف الحُلم النفسية تعويض الحالم بما يفتقر إليه في الواقع.. ويرى فرويد وهو يتكلم عن الأحلام وتفسيرها أنَّ لكل حلم محتوىً ظاهراً ومعنىً خبيئاً نسميه «الأفكار الكامنة» وأنه يجب التمييز بينهما وأن ذلك لازم في عملية تأويل الأحلام[٢٢].

الرغبة تتحول في الأحلام إلى واقعة كما تتحول الأفكار المستترة إلى صور ذهنية في أغلب الأحوال[٢٣].

وبعد هذا التمهيد نلقي نظرة على الأخبار الآتية:

ــ (عن عائشة زوج النبي ــ ﷺ ــ أنها أخبرت عروة بن الزبير راوي الحديث أن أم سُليم أم بني طلحة دخلت على رسول الله ــ ﷺ ــ فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق أرأيت المرأة ترى ما يرى الرجل.. أتغتسل؟ قال: نعم، فقالت عائشة: أفّ لك أترى المرأة ذلك، فالتفت إليها النبي ﷺ ــ فقال: تربت يمينك من أين يكون الشبه؟)[٢٤].

وفي رواية أخرى:

ــ (عن أم سليم ــ رضي الله عنها ــ قالت: كنت مجاورة أم سَلمة ــ رضي الله عنها ــ زوج النبي ــ ﷺ ــ فقالت: أم سليم: يا رسول الله أرأيت إذا رأت المرأة أن زوجها جامعها في المنام أن تغتسل؟ فقالت أم سلمة: تربت يداك يا أم سليم فضحت النساء عند رسول الله ــ ﷺ ــ .....)[٢٥].

ــ (أخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن امرأة يُقال لها بُسْرة جاءت إلى النبي ــ ﷺ ــ وقالت: يا رسول الله إحدانا ترى أنها مع زوجها في المنام؛ قال: إذا وجدت بللاً فاغتسلي يا بُسْرة)[٢٦].

الحديث الأول حديث أم سليم أخرجه أحمد ومسلم والبيهقي والدرامي ونقله ابن قدامة في المُغنى أي أنه ثابت وموثق توثيقاً مكيناً والآخر حديث بُسْرة أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ونقله عنه أبو حمزة الدمشقي في «الأسباب» وهما يدلان على أن احتلام النسوان في المجتمع اليثربي آنذاك، الناتج عن رؤيتهم أحلاماً بأن أزواجهن تفخذوهن في المنام، مسألةٌ لا يرقى إليها شك.

وهذا يؤيد فكرتنا التي قلنا بها من أن اتصال الذكر والأنثى كان لديهم من الشواغل الأثيرة حتى اللاتي لا يجدن ذلك متحققاً في واقع الحياة يرينه في الحُلم. وقد ذكرنا فيما سلف ما يؤكده علماء التحليل النفساني من أن الحُلم يؤدي دوراً تعويضياً كبيراً بتحقيق الرغبات الكامنة المكبوتة التي لا تجد في الواقع ما يرويها ويشبعها.

* * *

ولم يقتصر الاحتلام على النسوان بل كان بعض الرجال يحتلم، كان ذلك يحدث إذا اضطرته ظروف قاهرة للانفصال عن أنثاه مما يقطع بأن الاتصال بين الجنسين كان طقساً يمارسونه يومياً فإذا لم يتيسر لهم في اليقظة أي في الواقع رأوه في المنام على سبيل التعويض:

ــ (قال رفاعة بن رفاعة بن مالك: غلبني النوم فاحتلمت حتى اغتسلت آخر الليل ــ كان ذلك ليلة غزوة بدر الكبرى)[٢٧].

لقد كان حرّياً بهذا الصحابي أن يبيت مهموماً بالمعركة التي تقرر أن

تدور رحاها في اليوم التالي وهو يعلم أنها معركة فاصلة ولكن الطبع غلاب والعادة لها سلطانها.

ولم تكن كل النساء اليثربيات يكتفين بالمفاخذة التعويضية التي تحدث في الأحلام بل كان بعضهن يمتلك حساً واقعياً لم يرضَ بما يراه أو حتى يحسه في الرؤية فكان يبحث عن الزواج أو النكاح بحثاً دؤوباً وفي عجلة ولهفة وينقّ عن الشاب الجلد الذي يروي الظمأ ويعطي المتعة ويعرض عن الشيخ الكبير حتى لو كان ذا مال مثل:

سُبيعة بنت الحارث الأسلمية كانت زوجة لسعد بن خولة من بني عامر بن لؤي وكان ممن شهد بدراً فتوفى عنها في حجة الوداع، فما إن طهرت من نفاسها حتى بادرت بالتزين والتّجمّل للخُطّاب انتظاراً لإقبالهم عليها فدخل عليها ثلاثة هم: أبو السنابل بن يعكك وكهل وشاب فاختارت الشاب وفضلته وتفضيل الشاب ليس بحاجة إلى تعليل:

ــ (.. فلما تعلت من نفاسها تجمّلت للخُطَّاب فدخل عليها أبو السنابل بن يعكك فقال لها: مالي أراك تجملت للخطاب ترجين (النكاح) فخطبها فأبت أن تنكحه فخطبها رجلان: شاب وكهل فخطبت إلى الشاب)[٢٨].

وتراوحت الروايات في مدة الوضع بعد وفاة الزوج ما بين أسبوع إلى ثلاثة أسابيع ولم يستغرق طهرها من النفاس أكثر من أسبوعين أي أن سبيعة تزوجت بعد ترملها بشهر أو أقل ولا تفسير لذلك إلاّ الوله بالتماسّ مع الطرف الأخر.

وواقعة أخرى عن ذوات النزعة الواقعية يحملها لنا الخبر الآتي: ــ

ــ (عن الربيع بن سبرة أنَّ أباه حدثه أنهم ساروا مع رسول الله ــ ﷺ ــ في حجة الوداع فقال: استمتعوا من هؤلاء النساء، والاستمتاع عندنا التزويج فعرضنا ذلك على النساء فأبين إلاّ أن يضرب بيننا وبينهن أجلاً فقال رسول الله ــ ﷺ ــ: افعلوا. فخرجت أنا وابن عم لي معه بُرد ومعي برد وبرده أجود من بردي وأنا أشَبُّ منه فأتينا امرأة فأعجبها شبابي وأعجبها بُرده فقالت: بُرد كبُرده وكان الأجل بيني وبينها عشراً فبت عندها الليلة).

وتكملة الخبر تحريم زواج المتعة إلى يوم القيامة(٢٩).

سبيعة الأسلمية فور طهرها من نفاسها تتجمل وتتزين ويدخل عليها الخُطَّاب يعاينونها وتعاينهم ثم تختار منهم الشاب وتذر الكهل الذي أهلك الدهر قوته والأخرى ــ صاحبة زواج المتعة ــ لا تعير بُرد الشيخ الكبير اهتماماً رغم نفاسته وجودته وتفضل الشاب ذا البُرد الحائل المستهلك إذ ماذا يغنى البُرد الجيد عن صاحبه الكبير المتهالك!!!

ووقوع اختيار المرأتين على الشابين مؤشر واضح على قوة التماسّ بين الذكر والأنثى لديهن وهيمنته على وجدانهن وأنه الهاجس الوحيد الذي يتمركز في بؤرة الشعور لأن الأخبار لم تحدثنا أن السبب كان هو حسن خُلُق الشابين أو عمق تدينهما أو تضحيتهما في سبيل الدين أو لسابقتهما في الإسلام/ للسبب في آن.

ولعل من المناسب أن نذكر أن السبب في أنَّ محمداً أحلَّ لأصحابه «زواج المتعة» هو إدراكه العميق لما كان يجري داخل حنايا «مجتمع يثرب» وكان يهيمن على تفكير الفاعلين فيه من الجنسين فأحلَّ هذا النوع من النشاط حتى يدرأ به عنهم شرور

العلاقات المحرّمة فهو في آخر المطاف (زواج) أو (نكاح) مشروع لا شبهة فيه ومما يؤيد ذلك تيسير ما يُدفع في زواج المتعة من صداق أو سياق أو مهر مثل: بردة أو نعلين أو حفنة من تمر... ونحن نزكِّي رأي ابن عباس أنَّ زواج المتعة ظل حلالاً حتى حرَّمه عمر بن الخطاب ونعلل تحريم ابن الخطاب له هو تدفق السبايا والجواري المجلوبات من البلاد المفتوحة والموطوءة على يثرب حتى شبع الرجال منهن ومن ثم لم يعد هناك مبرر لِ «زواج أو نكاح المتعة» وسبق أن ذكرنا أن تغيّر الظروف المادية لدى مجتمع معين يؤدي بطريق الحتم واللزوم إلى تغير أنساقه الاجتماعية وعاداته وأعرافه وأفكاره بل وعقائده وعلى أحسن الفروض تفسير تلك العقائد تفسيراً مختلفاً.

ولكن ماذا تفعل المرأة في مجتمع يثرب إذا تزوجت من رجل لم يستطع إرواء ظمأها؟

أنها تشهَّر به وتعلن ذلك للقاصي والداني، للبعيد والقريب حتى تعلم القرية (يثرب) كلها بعنته وتلجأ لمحمد طالبة منه أن يخلصها من هذه (المصيبة) ولا تقول ذلك بصورة ملفوفة بأن تلمّح، لا، بل إنها تصيح مصرَّحة بذلك بأعلى صوتها وبطريقة خادشة تفزع حتى الرجال من الكهول:

ــ (عن عائشة قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي ــ ﷺ ــ فقالت: أن رفاعة طلقني البتة وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني وإنما عنده مثل الهُدبة وأخذت هُدبةً من جلبابها؛ وسعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له فقال: يا أبا بكر ألا تنهي هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ــ ﷺ ــ فما زاد ورسول الله ــ ﷺ ــ إلى التبسم وقال:

كأنك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة... لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك)[٣٠].

ورفاعة القرظي هو رفاعة بن السموءل والمرأة هي تميمة بنت وهب. والخبر موثق أشد ما يكون التوثيق إذ أوردته عوالي دواوين السنة ولا يكاد يخلو منه كتاب من كتب الفقه في المذاهب كافة لأنه انطوى على قاعدة فقهية هي «ذوق العسيلة»: ــ

وهو دليل دامغ على أن مسألة الملامسة بين الجنسين في «مجتمع يثرب» مسألة هامة وملحة لدى اليثاربة رجالاً ونسوةً.

* * *

وفي أحيان أخرى كانت المرأة في ذلك المجتمع لا تكتفي بقدرة الرجل على الركوب والمباطنة وكفايته في المجامعة والمفاخذة، بل كانت تشترط فيه أن يكون مليحاً وضيئاً حتى تكتمل لها المتعة أثناء الاعتلاء والامتطاء:

ــ (امرأة قيل إنها حبيبة بنت سهل الأنصارية وقيل إنها جميلة بنت سلول وقيل إنها جميلة بنت أبي سلول وقيل بل أنها أخت عبد الله بن أبي بن سلول، تزوجت من قيس بن ثابت وهو قصير دميم ويبدو أنها لم تعاينه قبل النكاح (الزواج) فما إن وقعت عيناها عليه حتى كرهته، وحاولت أن تعاشره ولكن نفسها لم تطاوعها إذ مما لا شك فيه أن قبح خلقة أحد الطرفين ودمامته يفسدان على الآخر متعته ولذته وبهجته، فذهبت إلى محمد وأبلغته أنها لا تشتكي من ابن ثابت في خُلقه ودينه ولكنها لا تطيقه بغضاً وتكره دمامته ولولا مخافة الله لبصقت في وجهه

كلما دخل عليها وأنها تريد فراقه لأن رؤيته تصيبها بالغم والكآبة والابتئاس وكان أصدقها حائطاً أي حديقة.

وفي رواية حائطين فسألها محمد إن كانت على استعداد لترد عليه حديقته فسارعت تجيب: أردها وزيادة فاستدعى قيساً وفك ما بينهما من عقد النكاح وردت الحديقة)[٣١] ولأنه أول خلع في الإسلام بين زوج وزوجه نجده مسطوراً في كتب المذاهب الفقهية كافة في الأبواب التي تتناول النكاح والطلاق والخلع والظهار...

هذه اليثربية تزوجت رجلاً فاضلاً لا عيب في دينه أو خُلقه أو معاملته أو عشرته أو إنفاقه على البيت ومع ذلك أبغضته وفزعت إلى محمد مُصرِّة على طلب الانفصال عنه لمجرد أن منظره كئيب يفقدها متعة التلاقي ونشوة التماس.

* * *

وفي المقابل نرى أن ملاحة ابن واحد من الصحابة ووضاءته قد جَنَتَا عليه إذ تعشقته نسوان ذلك المجتمع وتدلَّهن في حبه وتمنينه وأخذن يصرحن بذلك في أبيات شعر:

ـ (نصر بن الحجاج بن علاط السلمي كان من أحسن الناس وجهاً ولُمة وفي ليلة سمع عمر بن الخطّاب امرأة تقول: ألا سبيل إلى خمر فأشربها: ألا سبيل إلى نصر بن حجاج وهذه المرأة هي الفُريّعة بنت همام ويقال: إنها أم الحجاج بن يوسف الثقفي ولذلك قال له (للحجاج) عروة بن الزبير: يا ابن المتمنية.

فنفى عمر نصراً من المدينة فأتى الشام فنزل على أبي الأعور السُلمي

(له صحبة ومن شيعة معاوية ضد علي) فهوته امرأته وعشقها (= نصر) وفطن أبو الأعور لذلك.. فابتنى له قبة في أقصى الحيِّ فكان بها واشتد ضناه بالمرأة كلفاً بها حتى مات وسُمّي «المُضنَّى» وضربت به الأمثال)[٣٢].

وفي رواية أن عمر بن الخطاب أمر بحلق رأسه فازداد حسناً وجمالاً فتضاعف تولُّه اليثربيات به وأصبحت كل يثربية تتمنى التماسّ به فنفاه ابن الخطاب عن يثرب (المدينة) ولا ذنب لنصر في ذلك فالجمال منحة من الله لا من صُنْعه هو؛ والمرُء يؤاخذ على ما جنت يداه ويُسأل عما إقترف فنفْي عمر لَه وتغريبه إياه لم يكن عدلاً وليس في شرع الإسلام ما يسوّغه أو يبرره.

ونصر هذا أبوه صحابي بلا خلاف وكذا أبو الأعور السلمي (من رهطه وعشيرته) الذي نزل عليه ضيفاً في منفاه صحابي أيضاً وفي الأغلب الأعم أنّ امرأة أبي الأعور هي الأخرى كذلك ولم تذكر المصادر اسمها لنتأكد من ذلك ولكننا نقوله من باب الترجيح؛ فهذه المجموعة التي تشكل أبطال القصة تمثل عينة لـ «مجتمع يثرب» وما كان يشغله في هذا المجال، فلو لم تكن مسألة التلاقي بين الأنثى والذكر ذات بال لما افتتنت اليثربيات بالفتى الجميل نصر ولما لاحقنه وتمنَّينه وقلن شعراً في ذلك حتى ارتفع الأمر إلى الحاكم فلا يجد خلاصاً لهذه المشكلة التي أرقت عيون نسوة يثرب إلاّ بنفيه منها.

وتعجُّ المصادر على اختلافها وتنوعها (أحاديث، تفسير، أسباب نزول وورود، ناسخ ومنسوخ، فقه...) بصور عجيبة تؤكد ما نذهب إليه: ــ

ــ (عن عكرمة عن ابن عباس قال: جاء إلى النبي ــ ﷺ ــ قال: إن امرأتي لا تمنع يد لامس، قال: غرِّبها، قال: أخاف أن تتبعها نفسي قال: فاستمتع بها)[٣٣]، وعبارة (لا تمنع يد لامس) واضحة لا تحتاج إلى بيان ففي القرآن (أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيدا..)[٣٤، ٣٥]، ومع ذلك فهذا الرجل اليثربي لم يأخذ بنصيحة محمد أن يغرّب زوجته اليثربية التي لا طاقة لها بمنع يد لامس ويعلل ذلك بأنه يحبها ولا يطيق فراقها ولو فعل ذلك أي لو نفاها لتبعها أي لحق بها في منفاها!!!.

ويثربية أخرى تظهر عليها علامات الاستجابة ليد مَنْ يلمسها، ومنذ قديم حال هذا الصنف من النسوة لا يخفى على اليقظ:

ــ (قال رسول الله ــ ﷺ ــ: لو كنت راجماً أحداً بغير بيّنة لرجمت فلانة فقد ظهرت فيها الريبة في منطقها وهيئتها ومن يدخل عليها)[٣٦].

في الحديث أنَّ الشك يحوط تلك اليثربية من وجوه ثلاثة:

كلامها مضموناً وطريقة وصوتاً... الخ وملابسها وطريقة تزينها، وأن لها عملاءها من اليثاربة أفراد ذلك المجتمع الذين يشاركونها في أفعالها، ويبدو أن دائرة نشاط تلك الـ «فلانة» اتسعت وتعمقت وانتشرت حتى أقلقت محمداً.

٤

مجتمع الذكور والإناث

كانت نزعة معافسة النساء لدى رجال «المجتمع اليثربي» من القوة بحيث دفعتهم إلى تحطيم الحواجز التي أقامتها «النصوص المقدسة» صراحةً وبلا موارية مثل: مَنْ يظاهر من امرأته ثم يعتليها قبل التكفير وآخر يركب زوجته وهي حائض أو مستحاضة وثالث يطؤها في نهار رمضان ورابع ينكح امرأة أبيه أو يعاشرها دون عقدة نكاح وبتعبير الخبر «يدخل عليها» والمملوك الذي يشرع في مفاخذة جارية سيده بادئاً ــ كالعادة بتقبيلها وقد يحدث العكس: المرأة تسعى إلى أجير زوجها ليشبعها ويروي لها ظمأها لعجز زوجها عن ذلك.. الخ.

كل هؤلاء ذكوراً وإناثاً يعلمون علم اليقين أن الفعل الذي قارفوه حَرَّمته عليهم الشريعة التي بلّغها محمد ولكنَّ نزعة التلاقي بالآخر تغلبهم وتقهرهم وتملك عليهم نفوسهم وعقولهم ووجدانهم وتعطل ملكة التفكير السديد عليهم فلا يرون في «النصوص المقدسة» إلاّ قيوداً تحول دون انطلاقهم: ــ

ــ (أوس بن الصامت بن قيس الخزرجي ظَاهَرَ من امرأته فوطئها قبل أن يكفِّر)[٣٧].

وهذا رجل آخر يرتكب ذات المخالفة:

ــ أخبرنا أبو سلمة ومحمّد بن عبد الرحمن أنّ سلمة بن حجر البياضي جعل امرأته كظهر أمه حتى يمضي رمضان؛ فلما مضى نصف رمضان وقع عليها فأتى رسول الله ــ ﷺ ــ فقال اعتق رقبة)[٣٨].

فهذا الصحابي سلمة ــ أراد أن يتفرغ للعبادة في رمضان ولما كان يشك في قوة إرادته فقد ظاهر امرأته طوال ذاك الشهر لكيلا يقربها حتى انصرام الشهر ولكنه لم يصبر أكثر من أسبوعين وفي ليلة النصف بدل أن يحيها بالصلاة والدعاء والذكر والتهجد.. الخ وثب على امرأته فوطئها غير عابئ لا باليمين؛ يمين الظهار الذي قطعه على نفسه ولا بالنص الذي يمنع ملامسة النساء إبّان مدة الظهار، لأنَّ نزعة التواصل مع الجنس الأخر غلابة قهارة تكتسح في طريقها العقود والمواثيق والإيمان بل والنصوص نفسها.

وهذا آخر لا يراعي للصيام حرمة ويسيطر عليه الدافع ويهيمن على نفسه وحواسه ويشلُّ عقله فيسارع إلى امرأته فيعتليها في نهار رمضان غير عابئ بحرمة الشهر وقدسيته ولا بالنصوص الناهية:

ــ (عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: بينما نحن جلوس عند النبي ــ ﷺ ــ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت قال: مالك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم)[٣٩].

ولا يقال دفعاً لذلك أن الرجل كان صائماً صيام تطوع لا صيام

رمضان والرد عليه أنه لو كان كذلك لما أسرع إلى محمد لظنه أنه هلك لأنه لو كان صيام تطوع لكان في مقدوره الإعادة كما أن بقية الحديث تقطع بوقوع الامتطاء في نهار رمضان.

وهناك العديد من الأحاديث والأخبار التي تقطع بوقوع ملامسة الزوجات في نهار رمضان وهذا الخبر سقناه على سبيل المثال لا الحصر منعاً من الإملال والإطالة.

* * *

ــ (كان لزنباع الجذامي عبد يُقال له «سندر» وجده يقبِّل جارية له فخصاه وجدعه فأتى سندر رسول الله ــ ﷺ ــ فأرسل إلى زنباع وقال: من مُثِّل به وأُحْرِقَ بالنار فهو حر؛ وهو مولى الله عز وجل ورسوله واعتق سندر فقال له سندر: يا رسول الله أوصِ بي فقال: أوصى بك كل مسلم؛ فلما توفى رسول الله ــ ﷺ ــ أتى سندر إلى أبي بكر فقال: احفظ فيّ وصية رسول الله ــ ﷺ ــ فعاله أبو بكر حتى توفى ثم أتى بعده إلى عمر فقال عمر: إن شئت أن تقيم عندي أجريت عليك، وإلاّ فانظر أيَّ المواضع أحب إليك فأكتب لك فاختار سندر مصر؛ فكتب له إلى عمرو بن العاص أن يحفظ فيه وصية رسول الله ــ ﷺ ــ فلما قدم إلى عمرو بن العاص أقطعه أرضاً واسعة وداراً فكان سندر يعيش فيها؛ فلما مات قبضت في مال الله)[٤٠، ٤١].

نزعة التماسِّ بالجنس الأخر شملت الأحرار والعبيد ونرى أن محمداً قابل العبد الذي همّ بالزنا بجارية سيده بالرفق واللين، خاصة وأن سيده عاقبه عقاباً صارماً. وفي المجتمع اليثربي كان النسوان والرجال على قدم المساواة في السعي إلى الالتقاء بالآخر وفي الصور السابقة كان

الذُكران هم أصحاب المبادرة ولكن الخبر الذي نسوقه بعد قليل يثبت أن النساء لم يكنّ أقلّ إقداماً على ذلك ولم يَحُل الحياء الأنثوي المعروف دون اتخاذ الخطوة الأولى لشدة النزعة:

ــ (عن عبيد الله بن عتبة عن أبي هريرة وزيد بن خالد وشبل قالوا جاء رجل إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فقال: أنشدك الله إلاّ قضيت بيننا بكتاب الله فقال خصمه وكان أفقه منه صدق وإذن لي يا رسول الله أن أتكلم فقال له رسول الله ــ ﷺ ــ قل، فقال: إن ابني هذا كان عسيفاً (= أجيرا) على أهل هذا فزنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة وخادم وإني سألت رجالاً من أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم، قال رسول الله ــ ص ــ والذي نفسي بيده لأقضين بينكم بكتاب الله المائة شاة والخادم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ويا أنيس اغدُ على امرأة هذا فسلها فإنْ اعترفت فارجمها فاعترفت فرجمها)[٤٢، ٤٣].

ولا يقال إن المرأة كانت مكرهة أي أن العسيف (الأجير) قد أكرهها لأنها لو كانت كذلك لما أمر محمد برجمها لأنّ الإكراه يرفع الحد ولقالت لأنيس ذلك عندما طلب منه محمد أن يذهب إليها ليسألها فإن اعترفت رجمها، إذن الفعل تم برضاها ولما كان شريكها عسيفاً (أجيراً) لديها = لدى زوجها فلا شكّ أنها هي التي أغرته على ذلك سواء بالقول أو بالحركات أو باللين.. الخ لأنَّ الأجير لا يجرؤ على الاقتراب منها بدون ذلك؛ الخلاصة أن الخطوة الأولى كانت من قِبَلها تحت تأثير النزعة المشبوبة لدى أفراد ذلك المجتمع من الجنسين، وفي بعض الأحيان كان ذلك الدافع من القوة بحيث يجبر صاحبه ليس على تحطيم (النصوص المقدسة) فحسب بل على تجاوز الحد الأدنى من الالتزام الخلقي الذي ينبع من الفطرة السوية:

ــ (عن البــراء بن عازب قال: مرّ بي عمي الحارث بن عمر ومعه راية فقلت أين تريد؟ فقــال: بعثني رسول الله ــ ﷺ ــ إلى رجل نكح امرأة أبيه فأمر أن أضرب عنقه وأخذ ماله)[٤٤، ٤٥].

وتلك الواقعة تكررت وذكرت المصادر تكرارها ما يقطع بأنها كانت شائعة مألوفة.

ــ (عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: بعثني رسول الله ــ ﷺ ــ إلى رجل تزوج امرأة أبيه أن أضرب عنقه وأصفّي دمه وفي رواية أخرى وأصفّي ماله)[٤٦].

وكان الزواج من أرملة الأب معروفاً وليس منكراً في «المجتمع اليثربي» وهو ما يسمّى في علم الاجتماع بـ «وراثة النساء» ثم جاء الإسلام فحرمه وسمَّاه (فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً)[٤٧]. ولا شكّ أنّ الذين مارسوه سواء في هاتين النازلتين أو في غيرهما لا يجهلون ذلك ولكن يبدو أن تلك العادة كانت متمكنة وذات جذور ضاربة في الأعماق خاصة وأنه يحقق الري وإطفاء الشهوة بلا مقابل للرجل: والمرأة تجد لدى الابن من الفتوة والشباب والقوة ما يعوضها عن ضعف أبيه وهرمه، خاصة وأن الرجال في ذلك المجتمع كانوا يحرصون على أن تكون الزوجة الثانية والثالثة... صغيرة السن ليمتّع نفسه بها غير عابئ بالفارق في العمر الذي يصل في أحيان كثيرة إلى ثلاثين أو أربعين عاماً فلما يموت تسعد بالالتقاء مع ابنه الذي قد يكون نديداً لها أو أصغر منها ليعطيها ما كانت محرومة منه أيام أبيه.

والعقوبات الصوارم التي أمر بها محمد: التصفية الجسدية وإستصفاء المال تشي بأن المسألة لم تكن فردية بل جماعية أو جمعية أي

متكررة ومتواترة ــ ولكن في بعض الأحيان يكون طرفا العلاقة (= امرأة الأب والابن) أكثر دهاءً فلا يعقدان نكاحاً، ولكن المباشرة بينها تتم في الخفاء والكتمان:

ــ (قال أُبّيُ كعب: جاء رجل إلى النبي ــ ﷺ ــ فقال: أن فلاناً يدخل على امرأة أبيه فقال أبّي: لو كنت أنا لضربته بالسيف، فضحك النبي ــ ﷺ ــ وقال: ما أَغْيَرك يا أُبّي إني لأَغْيَر منك والله أغير مني)[٤٨].

وواضحُ من سياق الحديث أن الرجل يدخل على زوجة أبيه دخولاً مريباً وكانت تسعد بذلك بل ربما كانت تسعى إليه وتشجعه وأن الريبة هي التي دفعت الشاكي إلى تقديم شكواه إلى محمد، وهناك ملحوظة على درجة كبيرة من الأهمية وهو أنّ الخبر لا يُفهم منه أن الأب متوفى؛ لعلَّه كان مسافراً في تجارة أو سَرِيَّة فانتهز الابن فرصة غيابه واتصل بزوجته، إلى هذا الحد بلغ طغيان وازع الاتصال بالآخر: نكاح أرملة الأب أو مخادنة زوجته عندما يولي ظهره ويغيب عن بيته!!

لم يفلت من هذا النزوع العارم نحو الآخر صحاب ذوو أسماء لوامع:

ــ (عن خوات بن جبير بن النعمان عن أبيه قال:

خرجت مع النبي ﷺ ــ في غزوة فخرجت من خبائي فإذا بنسوة حولي فلبست حُلّة ثم أتيتهن فجلست إليهن أتحدث معهن، فجاء النبي ــ ﷺ ــ فقال: يا جبير ما يجلسك هنا؟ قلت: يا رسول الله بعير لي شرد)[٤٩، ٥٠].

هذا الصحابي خارجٌ في غزوة ومعه محمد أو هو مع محمد أي قريب منه ولكن كل ذلك يهون في سبيل الاتصال بالآخر فسارع بلبس حُلّة ــ لزوم التأنق ــ وأتى إلى النسوة وجلس إليهن يسامرهن ويبادلهن أطراف الحديث الشهي لعل الحديث يجر وراءه ما هو أعمق، ولما يضبطه محمد متلبسا وينكر عليه جلوسه ذاك لا يتورع أن يدعي أن سبباً آخر هو الذي دفعه لذلك وهو شرود بعيره، ومن البديهي أن ذلك لم يفت على فطنة محمد فكان كلما يراه، يسأله: ما فعل بعيرك ــ ولم يحدثنا الخبر عما إذا كانت تلك النسوان صواحب جبير هنّ زوجات الخارجين في الغزوة أو من الجيرة ــ ولعله مما لفت النظر أنهن لم يجدن غضاضة في الجلوس مع جبير والتحدث معه مما يقطع بأن ذلك المجتمع لم يكن مغلقاً كما كتب المتأخرين في وصفه.

ــ (حدثنا عمر بن أبي قيس عن عاصم عن عكرمة عن حمنة بنت جحش أنها كانت مستحاضة وكان زوجها يجامعها)[٥١].

(وحمنة هذه أخت زينب بنت جحش التي تزوجها محمد بموجب آية من القرآن بعد أن كانت عند زيد ابنه ثم مولاه وحمنة كانت زوجاً لمصعب بن عُمير؛ قُتل عنها يوم أُحد فتزوجها طلحة بن عبيد الله)[٥٢]. وكلاهما من أكابر الصحابة فالأول أرسله محمد قبل هجرته ليثرب ليقرئ اليثاربة القرآن ولذا أطلق عليه لقب «المقرئ» ولعب دوراً بارزاً في إدخال عدد من زعمائهم في دين محمد أما الآخر فهو من مجلس (العشرة المبشرين بالجنة) وهو «مجلس شورى محمد» والصورة الإسلامية لـ «ملأ قريش» حاكم مدينة القداسة: مكة قبل الإسلام؛ وسواء كان هذا أم ذاك فقد كان لا يجد غضاضة في مباطنة حمنة وهي مستحاضة.

أما عمر بن الخطاب فقد أقدم على ما هو أوعر[٥٣]:

ـ (عن عبد الحميد بن زيد بن الخطاب قال: كان لعمر بن الخطاب امرأة تكره الجماع فكان إذا أراد أن يأتيها اعتلّت عليه بالحيض، فوقع عليها فإذا هي صادقة، فأتى النبي ـ ﷺ ـ فأمره أن يتصدق بخُمس دينار)[٥٤].

هنا حديث أُسَريّ أي راويه من صاحب الخبر فعبد الحميد هو ابن أخي عمر ومعرفةُ ما إذا كانت المرأة حائضاً ليست معضلة فالحيض له رائحة نفّاذة ولون دمه متميز ولكن ابن الخطاب لم يستطع أن يكبح جموح شهوته حتى بعد أن تثبَّت من صدق زوجته وأنها فعلاً كانت حائضاً.

وهناك أخبار تدل على أن الدافع كان متوهجاً لدى ابن الخطاب: ـ

ـ (عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال يا رسول الله: هلكت قال: ما الذي أهلكك قال: حولت رحلي البارحة فلم يرد عليه شيئاً فأوحى الله إلى رسوله هــذه الآية (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم)، أقبل وأدبر واتقِ الدبر والحيضة)[٥٥، ٥٦، ٥٧].

الخبر يدل على أن ابن الخطاب من الذين يتلذذون بالمرأة مستلقية أو مقبلة أو مدبرة والذين يفرشونها فرشاً مؤثراً ولقد أيده محمد بآية من القرآن في إتيان المرأة مدبرة (مع تجنب الدبر) ومن ساعتها أصبحت رخصة لا لعمر وحده ولكن للمسلمين كافة ومن الملاحظ أنّ محمداً قال لابن الخطاب (اتقِ الحيضة) لأنه جامع إحدى زوجاته وهي حائض كما ثبت في الخبر الذي سقناه فهو يلفت نظره لعدم تكرار ذلك مرة أخرى.

حتى وهو صائم لم يكن ابن الخطاب يملك نفسه أو يسيطر عليها:

ــ (عن جابر أن عُمَرَ قال: هششت فقبّلت وأنا صائم؛ فقلت: يا رسول الله صنعت اليوم أمراً عظيماً قبلت وأنا صائم فقال: أرأيت لو تمضمضت من الماء وأنت صائم؟ قلت لا بأس؛ قال: فمه)(٥٨).

والصائم يكون في حالة روحية سامية لأن الصيام لله وهو الذي يجزي به كما أخبر محمد ومن ثم لا يفكر الصائم حتى في مقدمات الجماع مثل التقبيل لأن مثل هذه الأفعال تنافي روحانية الصوم ولكن يبدو أن ابن الخطاب كان له رأي آخر وتفسير مغاير للصيام ــ

ومما يؤكد أن دافع الالتقاء بالأنثى كان متقداً عند ابن الخطاب هو الخبر الآتي الذي قبل أن نسطره نبدأ بمقدمة شارحة:

عندما شرع الصيام كان يحرم على المسلم الأكل والجماع بعد أن ينام في الليل، بمعنى أنه إذا نام لا يحل له الطعام والشراب والاقتراب من الزوجة حتى يصبح، ولكن أصحاب النوازع المتوهجة في الالتقاء بالجنس الآخر مثل ابن الخطاب لم يعبأوا بهذا التحريم وتجاوزوه:

ــ (عن ابن عباس قال: إنّ الناس كانوا قبل أن ينزل في الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون ويحلّ لهم شأن الناس فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولم يأتِ أهله حتى يفطر من القابلة، فبلغنا أن عمر بن الخطاب نام ووجب عليه الصوم ووقع على أهله ثم جاء إلى النبي ــ ص ــ فقال: أشكو إلى الله وإليك الذي صنعت؟ قال: ما صنعت؟ قال: إني سولت لي نفسي فوقعت على أهلي بعد ما نمت، وأنا أريد الصوم، فزعموا أن النبي ــ ﷺ ــ قال: ما كنت خليقاً أن تفعل؛ فنزل الكتاب (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم)؛ وفي رواية: قام

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ــ فقال: يا رسول الله إني أردت من أهلي البارحة ما يريد الرجل من أهله، فقالت: إنها قد نامت فظننتها تعتلّ فواقعتها، فنزل في عمر (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم).

وفي رواية ثالثة: فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي ــ ﷺ ــ ذات ليلة قد سمر عنده فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت: إني قد نمت فقال: ما نمت ثم وقع بها)[٥٥، ٦٠، ٦١].

هذا الخبر برواياته المختلفة التي حملتها مصادر موثوقة يثير عدة أمور:

أ ــ أن ابن الخطاب لا يتورع عن إتيان أهله سواء بعد نومه هو أو نوم الزوجة رغم أنه يعلم تمام العلم أن ذلك منهي عنه ومحرم...الخ.

ب ــ أنه يرمي زوجه بالكذب عندما تخبره أنها نامت ليحلل وقوعه عليها.

ج ــ أن محمداً عاتبه على ذلك بقوله له (ما كنت خليقاً أن تفعل).

د ــ يقول عمر «إني أردت من أهلي البارحة ما يريد الرجل من أهله» وهي عبارة بالغة الدلالة وتفصح عن نظرة الرجل إلى المرأة في ذلك المجتمع الأمي فكل ما يريده منها هو المفاخذة فلا يريد منها: مسامرة لطيفة أو مشاورة في أمر عام أو خاص... لأنها في نظره مجرد ماعون يفرغ فيه شهوته.

هـ ــ أن محمداً للمرة الثانية على التوالي يحل لعمر الورطة[٦٢] التي وقع فيها بأن يتلو آية قرآنية وقد سبق أن رأينا أن ذلك حدث عندما حول

ابن الخطاب رحله وأتى امرأته وهي مدبرة (مع تجنب الدبر).

ــ (روى الشافعي في مسنده عن زينب بنت أبي سلمة أنها إرتضعت من أسماء امرأة الزبير قالت: فكنت أراه أباً وكان يدخل عليّ وأنا أمشط رأسي فيأخذ ببعض قرون رأسي ويقول أقبلي على)[٦٣].

والزبير من أكابر الصحابة وهو زوج أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة وزينب بنت أم سلمة إحدى زوجات محمد.

* * *

ونظراً لان التقاء الذكر بالأنثى والأنثى بالذكر طقس يومي من الطقوس الاجتماعية المعتادة في مجتمع يثرب فقد اضطر محمد دفعاً للحرج عن أصحابه أن يبيح لهم أن يسيروا في المسجد وهم جنب:

(عن زيد بن أسلم قال: كان أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ يمشون في المسجد وهم جنب)[٦٤]. ولو كانت حالة الجنابة فردية لما صرَّح بذلك ولكن هذا التصريح يفيد أن الحالة كانت جماعية وبدرجة شديدة الكثافة بحيث لو حُظِرَ المشي في المسجد مع الجنابة لأحدث ارتباكاً في صفوف الصحبة خاصة وإن المسجد آنذاك كان يستعمل لغير الصلاة وذلك وراثة عن المسجد الحرام ودار الندوة قبل ظهور الإسلام[٦٥].

وكانت بعض الوقائع على درجة معقولة من الجنوح:

ــ (روى جابر قال:... فخطبت امرأة فكنت أتخبأ لها حتى رأيت ما دعاني إلى نكاحها)[٦٦، ٦٧].

ما الذي دفع جابر بن عبد الله وكان من المقربين لمحمد إلى أن يتخبأ ليرى ما يدعوه إلى نكاحها لأن المرأة ــ على الأقل ــ كانت تكشف

وجهها وكفيها ــ إذن كان يريد أن يرى غيرهما مما لا تظهره المرأة إلا في المنزل وهو ما يحتاج لمن يريد أن يطلع عليه إلى التخبؤ لأنها لو فطنت إليه لخبأته عنه، هذه الأجزاء المستورة هي ما عبر عنها جابر: حتى رأيت «ما دعاني إلى نكاحها» فلما أعجبته تزوجها.

* * *

ولم تكن «التجاوزات» مقصورة على مشاهير الصحابة ممن ذكرنا بعضهم على سبيل المثال بل تعدتهم إلى صحابيات معروفات، بل ومقربات إلى محمد.

ــ (عن عبد الرحمن بن أبي رافع أن أم هاني بنت أبي طالب خرجت متبرِّجة قد بدا قرطاها فقال لها عمر بن الخطاب: اعملي فإن محمداً لا يغني عنك شيئاً فجاءت إلى النبي ــ ﷺ ــ فأخبرته فقال رسول الله ــ ص ــ: ما بال أقوام يزعمون أن شفاعتي لا تنال أهل بيتي... تنال حاوحكَم)[٦٨]. حاوحكم قبيلتان. إن تبرُّجَ أم هانيء بنت أبي طالب أخت عليّ وبنت عم محمد، أفزع عمر بن الخطاب حتى لفت نظرها إلى أن محمداً لا يغني عنها شيئاً أي يوم الحساب فتشكوه إلى محمد ــ فيصرِّح محمد بأن له شفاعة أكيدة يوم القيامة وأن أول من تنالهم هم أهل بيته أي بني هاشم، فهو لم ينفِ واقعة تبرجها ولم يخطِّئ ابن الخطاب في لفت نظرها إلى ذلك ولكنه أخذ عليه إنكاره شفاعته وأنها ستشمل بني هاشم وأم هانئ منهم أي أن تبرج أم هانئ مغفور لها بالشفاعة المحمدية.

ولكن ما الذي يدعو أم هانئ وهي مَنْ هي إلى التبرج؟ إنها بلا شك ضواغط «مجتمع يثرب».

* * *

هذه الفصلة نفردها لصحابيين من ذوي الشهرة لكل منهما قصة تدخل في نطاق هذا الموضوع، وقد اشتركا معاً في الحكاية الأولى أما الأخرى فقد انفرد بها أحدهما وهو الأعلى مكانة والأذيع صيتاً والأكثر تقديراً.

والخبران موثقان توثيقاً محكماً وقد وردا في العديد من الدواوين والكتب التي تكاد تبلغ حد القداسة ومن ثم لا يرقى إليها شك ولا تقرب منها ريبة.

أما أولهما فهو المغيرة بن شعبة:

فهو ــ بادئ ذي بدء من كتَّاب محمد أي الذين كانوا يكتبون له الرسائل التي يمليها عليهم وكان لا يفعل ذلك إلاَّ مَنْ يحوز على الثقة بعد أن خان أحدهم الأمانة وارتد وهرب إلى مكة وادّعى أنه كان يحرّف ألفاظ القرآن التي كان يمليها عليه محمد ــ واتصاف المغيرة بأنه من كتاب محمد مسألة متواترة جاءت في الكتب التي تناولت حياة الصحابة وأحوالهم منها كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة»[٦٩].

ــ (قال المغيرة بن شعبة: حصَّنت تسعاً وتسعين امرأة ما أمسكت فيهن واحدة منهن واحد على حب، ولكني أحفظها لمنصبها وولدها، فكنت أسترضيهن بالباه شاباً، فلما أن شبت وضعفت عن الحركة أسترضيهن بالعطية)[٧٠].

والخبر صحيح في أن مجتمع يثرب الذي عاش فيه المغيرة ملازماً لمحمد إذ عمل كاتباً له بعبارته لا يعبأ بالحب بين الرجل والمرأة ورغم سمو هذه العاطفة فلم يكن لها أقلّ موضع في ذاك المجتمع إنما مدار العلاقة بين الطرفين ومحورها كان أمريْن: الباه أيْ قوة الجماع والمال فهما السبيل

لاسترضاء إناث ذاك المجتمع فإذا كنت شاباً استطعت أن تروضهن وتسترضيهن بالباه أم إن كنت شيخاً اضمحلت قوتك ووهنت حركتك فليس أمامك إلاّ الأموال والهدايا والعطايا، ولعلنا لاحظنا: أن الباه جاء في المقام الأول بعبارة أحد الفاعلين البارزين في ذلك المجتمع ــ وكل خبر نسوقه يؤكد الفكرة التي تتمحور عليها دراستنا هذه. ثم نعود إلى سياق الخبر:

نحن لا نعوّل كثيراً على ما أورده الجاحظ ــ مع تقديرنا البالغ له ولمكانته في الفكر والأدب ــ لأننا إنما نعتمد في دراستنا هذه على المصادر التراثية التي تلقتها الأمة بالترحاب والتجلة والتي ربما تبلغ حد القداسة ومؤلفات الجاحظ ليست كذلك مع نفاستها الشديدة وذلك لأمرين:

أ ــ ربما دفعته نزعته الأدبية إلى المبالغة والتهويل.

ب ــ ما عرف عنه من وجهة اعتزالية تجعله غير مقبول لدى أهل السنة والجماعة.

نسطر ذلك حتى نقطع السبيل على أي فلحاس[٧١] حتى لا يصيح ناعقاً أو ينعق صائحا أن مصادرنا هي كتب الأدب والنوادر والأمالي ــ مع تقديرنا لها جميعها وأنها جزء من تراثنا الذي نعتز به ــ ويترك عشرات المصادر الأخرى ويتمسك بهذا المصدر اليتيم؛ وإذا كان القارئ يستهول أن يكون المغيرة بن شعبة قد أحصن تسعاً وتسعين زوجة ويرى أن ذلك مبالغة فاضحة من الجاحظ فإننا نورد فيما يلي ما جاء به كتاب تراثي صاحبه من الذين أرخوا للصحابة وهو موضع تقدير من الأمة، وهو كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لـ ابن عبد البر:

(قال: حدثنا سحنون عن ابن نافع قال: أحصن المغيرة بن شعبة

ثلاثمائة امرأة في الإسلام، قال ابن وضَّاح: غير ابن نافع يقول: ألف امرأة)[٧٢]؛ ولا شك أن في كلا الرقمين مبالغةً وبذلك نكون قد ظلمنا الجاحظ إذ رميناه بالتهويل لأن ما ذكرناه لا يبلغ ثلث الأول وعُشر الآخر.

ومع ذلك إذا سرنا في سبيل اتهام الجاحظ بالمبالغة وقلنا إن المغيرة أحصن ــ في الإسلام وحده ــ نصف العدد أي خمسين امرأة فحسب ألاّ يدل ذلك على أن نزعة التلاقي بالجنس الآخر أو بتعبير ابن شعبة ذاته (الباه) كانت في ذلك المجتمع متوقدة ومتوهجة بل ومشتعلة بصورة قل أن نرى لها مثيلاً في المجتمعات الأخرى قديماً وحديثاً!!.

* * *

حكاية المغيرة مع أم جميل:

يبدو أن الباه عند المغيرة بن شعبة كان مشبوباً بطريقة غير عادية فرغم أنه تزوج ذلك العدد من الزوجات فإنه لم يكتف بذلك بل:

ــ (جعل يختلف إلى امرأة من بني هلال يُقال لها أم جميل بنت محجن بن الأفقم بن شعينة بن الهزم وكان لها زوج من ثقيف يقال له الحجاج بن عتيك، فبلغ ذلك أبا بكرة بن مسروح مولى النبي ــ ﷺ ــ من مولدي ثقيف وشبل بن معبد بن عبيد البجلي ونافع بن الحارث بن كلدة الثقفي وزياد بن أبيه (الذي ألحقه معاوية فيما بعد بأبيه سفيان بن حرب. إ. هـ) فرصدوه حتى إذا دخلوا عليه هجموا عليه فإذا هما عريانان وهو متبطنها، فخرجوا حتى أتوا عمر بن الخطاب فشهدوا عنده بما رأوا، فقال عمر لأبي موسى الأشعري: أني أريد أن أبعثك إلى بلد قد عشش فيه الشيطان قال فأعنِّي بعدة من الأنصار، فبعث معه البراء بن مالك وعمران بن الحصين وأبا نجيد الخزاعي،

فولاه البصرة وأمره بإشخاص المغيرة فأشخصه بعد قدومه بثلاث.

فلما صار إلى عمر جمع بينه وبين الشهود، فقال نافع بن الحارث: رأيته على بطن المرأة يحتفز عليها ورأيته يدخل ما معه ويخرجه كالميل في المكحلة ثم شهد شبل ابن معبد على شهادته ثم أبو بكرة ثم أقبل زياد رابعاً، فلما نظر إليه عمر قال: أما أرى فيه وجه رجل أرجو ألا يُرجم رجل من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ على يده ولا يخزي بشهادته، وكان المغيرة قدم من مصر فأسلم وشهد الحديبية مع رسول الله ــ ﷺ ــ فقال زياد: رأيت منظراً قبيحاً وسمعت نَفَساً عالياً وما أدري أخالطها أم لا ويقال: لم يشهد بشيء.

فأمر عمر بالثلاثة فجلدوا، فقال شبل: أتجلد شهود الحق وتبطل الحد، فلما جُلد أبو بكرة قال أشهد أن المغيرة زانٍ؛ فقال عمر: حدّوه، فقال علي: إن جعلتها شهادة فارجم صاحبكَ، فحلف أبو بكرة ألاّ يكلم زياداً أبداً وكان أخاه لأمه سمية، ثم إن عمر ردّهم إلى مصرهم)(٧٣).

أما عز الدين ابن الأثير الجزري فيروي الواقعة باختصار:

(روى أبو عثمان النهدي قال: شهد أبو بكرة ونافع يعني ابن علقمة وشبل بن معبد على المغيرة أنهم نظروا إليه كما ينظرون إلى المرود في المكحلة فجاء زياد (بن أبيه) فقال عمر: جاء رجل لا يشهد إلاَّ بالحق: رأيت مجلساً قبيحاً وانتهازاً ــ وفي رواية: رأيت إستا تنبوا ونفساً يعلو وساقين كأنهما أذنا حمار ولا أعلم وراء ذلك فجلدهم عمر)(٧٤).

أما صاحب «الاستيعاب» فقد روى الواقعة في أكثر من موضع نكتفي باثنين:

في ترجمة أبي بكرة:

ــ (وكان من فضلاء الصحابة وهو الذي شهد على المغيرة بن شعبة فبت الشهادة وجلده عمر حدَّ القذف إذ لم تتم الشهادة)[٧٥].

وكذلك في ترجمة زياد بن أبي سفيان:

ــ (فلما شهد على المغيرة مع أخيه أبي بكرة وأخيه أبي نافع وشبل ابن معبد وحدّ عمر ثلاثتهم دونه إذ لم يقطع الشهادة وقطعوها)[٧٦].

والخبر مشهور ورد في العديد من كتب السير والتواريخ ولا مطعن عليه ــ والمغيرة وقت حدوث الواقعة كان والياً للبصرة وهو بلا شك آنذاك قد جاوز الأربعين وقارب الخمسين (على أقل تقدير) ومع ذلك يقارف تلك الفعلة وعنده ولا شك أربع زوجات خلاف الإماء والجواري وملك اليمين، فكيف كان حاله وهو شاب قوي في العشرين من عمره، ولم يراع أنه حاكم المصر وأحد الصحابة الذين يعتبرهم المسلمون قدوة وأسوة!!!

والذي لا مرية فيه أن ابن الخطاب مارس نفوذه كخليفة لدى الشاهد الرابع زياد وأوحى له بالعبارات التي قالها إن المغيرة من صحب محمد وإنه سوف يُرجم إذا شهد بذات شهادة الثلاثة الذين سبقوه فوعاها زياد جيداً خاصة وأنه كان عاملاً لعمر على بعض صدقات البصرة[٧٧] أي كان موظفا لدى عمر، فشهد (= زياد) شهادة مائعة[٧٨] فأفلت المغيرة من الرجم وأقيم الحدَّ على الشهود الثلاثة وعلى رأسهم أبو بكرة الذي قال في حقه الحسن البصري سيد التابعين (لم ينزل البصرة من الصحابة ممن سكنها أفضل من عمران بن الحصين وأبي بكرة)[٧٩]. ومن الطريف أن زياداً لقي جزاءه على يد ابن الخطاب نفسه إذ عزله من عمله الذي ذكرناه

آنفاً لأن ابن الخطَّاب قدر أن الذي يلّون شهادته لا يصعب عليه أن يغلّ في الصدقات[٨٠]. لقد عزّ على عمر أن يُرْجَم أحد الصحابة بتهمة الزنا ولكنّ توقيع الحدود والحكم بالعدل والشرع أولى ليعرف المسلمون جميعهم وغيرهم أن الناس كلهم سواسية أمام الأحكام لا فرق بينهم، وحتى إذا سلمنا جدلاً أن ما أتاه المغيرة مع أم جميل (التي لم يعبأ أن زوجها من قبيلته ثقيف) لا يبلغ حد الزنا ولكنه يشكّل أفعالاً عديدة تحرمها الشريعة، التي أعلنها محمد منها: دخول بيت مسلم في غيابه والخلوة بزوجته، والتعرِّي في بيته، وتعرية زوجته والنظر إليها عارية كما ولدتها أمها والالتصاق بها والاستمتاع بها (دون أن يبلغ حد الجماع)... الخ.

أليست كل هذه مخالفات جسيمة للشرع كانت توجب على ابن الخطاب أن يعزّر المغيرة، لم يفعل عمر شيئاً من ذلك بل على العكس كافأ المغيرة إذ نقله من ولاية البصرة إلى ولاية الكوفة[٨١]...!!

هذه هي الواقعة التي اقترفها ابن شعبة:

صحابي كان يكتب لمحمد أي ملازماً له ومنذ دخوله الإسلام في صلح الحديبية وهو لزيق به ثم يولِّيه عمر على أحد الأمصار وكان في تلك الأيام في نهاية مرحلة الكهولة وبداية الشيخوخة وتزوج عدداً لا يحصى من الزوجات خلاف ملك اليمين ومع هذا يقدم على ذلك أليس هذا دليلاً ناصعاً على عرامة[٨٢] النزوع للآخر وحدته وشدته لدى أفراد ذلك المجتمع؟؟

أما الآخر فهو: عمر بن الخطاب:

الواقعة التي سنسطرها بعد قليل حدثت من ابن الخطاب وهو خليفة، إذ كان يشعر بسخط «بني هاشم» لتوليه وأبي بكر من قبله الخلافة

وهما من فرعي «تيم وعديّ» أقل مقاماً بما لا يقاس في قريش منهم، فخطب ابنةً لعلي من فاطمة بنت محمد، أراد بذلك أن يضرب عصفورين بحجر واحد أي يحقق هدفين:

أ ــ أن يمتص غضب الهاشميين ــ رهط محمد وأحق الناس بخلافته في ملكه كما صرحوا بذلك مراراً على ألسنة كبرائهم ــ وذلك بأن يُصهر إلى عليّ مرشحهم الرئيسي لتولي الخلافة.

ب ــ أن يمتّع نفسه بعد أن صار خليفة وحاكماً على الإمبراطورية الإسلامية التي بدأت تتخلق ملامحها وبعد أن تدفقت الغنائم من البلاد الموطوءة بحد السيف وطفق الصحاب يجنون الثمار الشهية والتي ما كانوا يحلمون بها من غزواتهم وفتوحاتهم. وهناك خبر مشهور «جُعل رزقي تحت سيفي أو رمحي» وكانت لعليّ «ابنة صغيرة تعد نديدة لحفيدات ابن الخطاب، والهاشميات وهن من ذؤابة قريش أي أرستقراطيتها كن يتميزن بالجمال الفائق وقد رأينا منذ قليل كيف كانت أم هانيء (عمة أم كلثوم) تتبرج لتظهر جمالها حتى خاشنها عمر فشكته لابن عمها محمد..

ونذكر بيت الشعر الذي يسجل وضاءة الهاشميات:

«بعيدة مهوى القرط إمّا... لنوفل أبوهما وإمّا لـ عبد مناف والهاشميات يدخلن تحت دوحة «عبد مناف»

لقي ابن الخطاب مناوأة من عليّ وعقيل (عم البنت) والحسن والحُسين (شقيقها وحفيدي محمد الأثيرين) ولكن عُمَرَ أخذ يداور ويناور ويضغط واستثمر سلطانه كخليفة وحاكم بأمره وبيده المنع والمنح وأن له تحديد الأنصبة التي تخص كلاً منهم من الغنائم الأسطورية

التي تدفقت على يثرب وأدارت رؤوس الصحبة وأولادهم وتلك الغنائم في واقع الأمر هي ناتج عرق الفلاحين والعمال والشغيلة في البلاد التي وطئوها بقوة السلاح. ولم يكتفِ ابن الخطاب بذلك التلويح أو التلميح بل لجأ إلى «ذهب المعز» فأغرى علياً وبنيه بصداق قدره أربعون ألف درهم[٨٣] في الوقت الذي كان فيه يشجب ظاهرة المغالاة في المهور التي ضربت «المجتمع اليثربي» نتيجة وصول الأموال الوفيرة إلى أيديهم فتغيرت أحوالهم الاقتصادية ولكن العادة جرت على طول التاريخ أن ما يعظ الحاكم به «رعيته» شيء وما يفعله هو وأهل بيته شيء مغاير تماماً فلا بأس أن يقف ابن الخطاب على المنبر ويحث الرعيّة على عدم المغالاة في المهور ثم ينزل من على المنبر ويسوق إلى عليّ أربعين ألف درهم نِحْلة أيْ مهراً لابنته الصغيرة الجميلة أم كلثوم!!!

وأثمرت أساليب ابن الخطاب المتباينة وأفلحت في شل معارضة عقيل والحسن والحسين واستطاع أن يفوز بزواج الطفلة الوضيئة:

ــ (كان عمر قال لعليّ: زوجني يا أبا الحسن فإني سمعت رسول الله ــ ص ــ يقول: كل نسب وصهر منقطع يوم القيامة إلاّ نسبي وصهري.. فزوجه أم كلثوم.

وفي رواية: أنَّ عمر بن الخطاب خطب أم كلثوم فقال عليّ: إنها صغيرة فقال عمر: يا أبا الحسن زوجنيها فإنّي أرصد من كرامتها ما لا يرصدها أحد، فقال عليّ أنا أبعثها إليك فإن رضيت فقد زوجتكها فبعثها إليه ببرد وقال لها: قولي له: هذا البُرد الذي قلت لك فقالت ذلك لعمر فقال: قولي له قد رضيته رضي الله عنك، ووضع يده على ساقها فكشفها فقالت له: أتفعل هذا؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ثم خرجت حتى جاءت أباها وأخبرته بالخبر وقالت: بعثتني إلى

شيخ سوء! فقال: مهلاً يا بنية فإنه زوجك)[٨٤].

إن كشف عمر لساق البنت ثابت في عدة مصادر، منها ما أورده ابن قدامة في موسوعته الفقهية «المغنى»:

ــ (وقد رُوي عن سعيد عن سفيان عن عمرو بن دينار عن أبي جعفر قال: خطب عمر بن الخطاب ابنة عليّ فذكر منها صغراً فقالوا إنما ردَّك فعاوده فقال نرسل بها إليك تنظر إليها فكشف عن ساقيها فقالت أرسلْ (أيْ أرخِ ثوبي) لولا أنك أمير المؤمنين للطمت عينك)[٨٥].

في ذلك المجتمع المتوقد بنزعة مخالطة الآخر كان الساق هو ميزان أنوثة المرأة فإن كان خدلجاً[٨٦]. دل ذلك على أنها وعاء ممتاز للمباضعة والمفاخذة والمباطنة... وفي سيرة الصحابي بُسر بن أرطأة وكان من شيعة معاوية الأوفياء وفعل بشيعة عليّ الأفاعيل ومن بينها أسر المسلمات وبيعهن جواريَ ــ في السوق وذلك لأول مرة في تاريخ الإسلام كان المشترون قبل الشراء يكشفون عن ساقي المرأة المسلمة قبل شرائها من أعوان بُسْر فإن وجدوهما ممتلئتين أتموا الصفقة وإلاّ فلا، لأن امتلاء الساقين كان علامة فارقة في هذا المضمار[٨٧].

لذا لما أرسل عليّ ابنته أم كلثوم إلى خطيبها ابن الخطاب بادر بمعاينة ساقيها حتى يتأكد من جودة البضاعة أو الصنف؛ ولما كانت البنت حرةً وشريفةً فأمها فاطمة بنت محمد، فقد استنكرت هذا الفعل من الخليفة وصاحت في وجهه «أتفعل هذا؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك»، وفي رواية «المغنى» «للطمت عينك» وأسرعت إلى أبيها تشكو الشيخ الذي هو في سن جدها ومع ذلك لم يتورَّع عن كشف ساقيها!! فأرتبك علي ولم يجد ما يرد به علي سخطها إلاَّ قوله «مهلاً يا بُنية إنَّه زوجك»

ليهدئ من ثورتها... فهي لم تصبح زوجته إذ أين العقد ومتى انعقد وأين الشاهدان والعلانية.. الخ.

وأحسن الفروض أن أمير المؤمنين كان خاطباً لم يتجاوز بعد مرحلة الخطبة، وهنا لعل القارئ يسأل:

هل يجوز للخاطب ــ حسب الشّرع الذي حمله محمد إلى الناس ــ أن يكشف عن ساقي مخطوبته ويعاينهما؟

وهل يمكن لأي خاطب أن يقتدي بعمر في ذلك باعتباره من النجوم الذين إذا اقتدي بهم المسلم اهتدى؟ أم هي من خواص عمر وحده دون المسلمين؟ أم أنّ عُمَرَ اعتمد في ذلك على أنه ممن شهد بدراً وبايع تحت الشجرة فمهما فعل أو تجاوز فإن خطاياه مغفورة له خاصة وأنه من «العشرة المبشرين بالجنة» الذين لا تضرهم البتة أفعالهم؟

أياً كان الأمر فإن الواقعتين اللتين صدرتا من اثنين من أكابر الصحابة... تقطع بتأكيد ما وثّقناه من أن النزوع للآخر لدى أفراد ذلك المجتمع ذكوراً وإناثاً كان دفّاقاً، ولذا فهو وضع الصحابة ذوي الرتب العوالي و«عامة المسلمين» في كفتيْن متساويتيْن لأن الأولين في نهاية المطاف ما هم إلاّ بشر تعتريهم كغيرهم النوازع الطبيعية وأنهم لا يستطيعون الانفلات من إكراهات المجتمع الذي يحيون بين جنباته.

* * *

من شدة ذلك الوازع على أعضاء «مجتمع يثرب» أنْ غطّى على بصيرتهم فلم يفرقوا بين ما إذا كان المكان مما يجوز إظهاره فيه أو هل الميقات مناسب لإبدائه أم هل المهمة الموكولة إلى العضو تحتم عليه كتمانه أم لا.

لم يفرقوا بين ذلك كله بل إنه غلبهم حتى في أشد الأماكن والأوقات قداسة وفي أحرج الظروف وأدقها وأصعبها... في المعركة... أو إبّان تبليغ رسالة حملها محمد لهم:

ــ (من رواية يحيى بن عبد الله بن الحارث قال: لما دخل رسول الله ــ ص ــ مكة يوم الفتح قال سعد بن عبادة ما رأينا من نساء قريش ما يذكر من الجمال؟ فقال النبي ــ ﷺ ــ: هل رأيت بنات أبي أمية بن المغيرة؟ هل رأيت قريبة؟[*] هل رأيت هنداً؟ إنك رأيتهن وقد أُصِبْن بآبائهن.

لم يشغل فتح مكة وهو مرحلة فاصلة في تاريخ فجر الإسلام الصحابي المعروف وأحد زعماء الأنصار وسيد الخزرج سعد بن عبادة أن يرنو ببصره متفحصاً نسوان قريش ثم يصدر حكمه بعد ذلك أنهن لسن على المستوى الذي يذاع عنهن من الجمال والوضاءة؛ ولكن هذا الحكم لم يُرْضِ محمداً القرشي فيرد عليه أنك رأيتهن وهن في حالة حداد على قتلاهن من الآباء والأبناء ويضرب له أمثلة على حسناوات قريش ومنهن هند بنت أبي أمية، المعروفة بأم سلمة إحدى زوجاته التسع.

ــ (عن عبد الله بن الزبير أنه قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة)[٨٨، ٨٩].

والزبير أحد أعضاء «مجلس العشرة المبشرين بالجنة» أو «مجلس شورى محمد» الذي حل محل «ملأ قريش» الذي كان يحكم مدينة القداسة مكة قبل الإسلام وابن عمة محمد وأحد المقربين إليه ولا يُقال

(*) قريبة هي بنت أبي المغيرة وهند هي كذلك بنت أمية وهي أم سلمة زوج النبي ﷺ.

دفعاً لنظر الزبير إلى خدم هند وصويحباتها أنه كان يريد أن يتأكد من هروبهن فكان يكفيه أن يراهن مدبرات مُولِّيات ولا حاجة به بعد ذلك إلى تصويب بصره إلى سيقانهن أو خدمهن أو مواضع رباط سراويلهن أو خلاخيلهن، وكان ذلك في عركة أحد، إحدى المعارك الهامة في أول الإسلام.

ــ (قال خارجة بن جزيٍّ العذريّ ــ يوم تبوك ــ سمعت رجلا يقول يا رسول الله أيباضع أهل الجنة؟)[٩٠].

لم تمنع أهوال معركة تبوك هذا الرجل أن يسأل عن المباضعة في الجنة، أو لعله يريد أن يطمئن أنه لو استشهد ودخل الجنة هل فيها مباضعة وهل يستمر يباضع الحورية التي ستكون من نصيبه كما يفعل حالياً في الدنيا مع زوجته أو زوجاته الأربع!!

ألا يقطع هذا الخبر أن مفاخذة النسوان كانت لديهم هاجساً ملحاً يشغل عليهم حواسهم حتى في أحرج الأوقات؟

ــ (وأردف (= محمد) الفضل بن العباس بن عبد المطلب وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً فلمّا دفع رسول الله ــ ﷺ ــ مرت به ظُعُن أي نسوان ــ غالباً ــ ما يكُنَّ في الهوادج ــ يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ــ ﷺ ــ يده على وجه الفضل فحَوّل وجهه إلى الشق الآخر فأخذ ينظر فحَوّل رسول الله ــ ﷺ ــ من الشق الآخر على وجه الفضل فصرف وجهه من الشق الآخر)[٩١].

ــ (عن عبد الله بن عباس قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ــ ﷺ ــ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر

إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله ــ ﷺ ــ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر)[٩٢].

كان ذلك في حجة الوداع.

وهكذا وفي أقدس المشاعر والأوقات يصرُّ الفضل على أن يبصبص[٩٣] للحاجَّات ورغم أن محمداً (ابن عمه) حَوّل وجهه أكثر من مرة إلى الجهة الأخرى، إلاَّ أنه يعاود التطلع إليهن.

وعندما جاءت امرأة خثعمية تقول الروايات إنها حسناء وضيئة إلى محمد تستفتيه في أمور دينها ينتهزها الفضل فرصةً فيمعن النظر إليها وترد هي إليه التحية بأحسن منها فتحدق ببصرها فيه ولا يرى محمداً بداً من فض هذا الاشتباك البصري فيلفت وجه الفضل إلى الشق الآخر ولكن الأخير مصر على البصبصة[٩٣].

ويبدو أن الخثعميات كنَّ آنذاك يتميزن بالملاحة والحُسن فهناك خثعمية هي أسماء بنت عميس تعاقب عليها خمسة أزواج من الصحابة من بينهم شقيقان هما جعفر وعليّ ابنا أبي طالب والحمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة. وخبر الفضل والمرأة الخثعمية ورد في جلِّ المصادر التراثية رفيعة الدرجة أي أن التشكيك فيه ضرب من المكابرة، وهو مثل فاقع على طغيان تلك النزعة نزعة الالتقاء بالآخر من كلا الطرفين وأنها غلاَّبة وقهَّارة تهيمن على أفراد ذاك المجتمع فتجعلهم يحطمون في طريقهم كل القيم، فلا قدسية صحبة محمد ولا قدسية المكان ولا قدسية الزمان تقف حائلاً في طريقهم، ولعل طغيان تلك النزعة لدى أولئك تتضح جلية في الإجابة عن السؤال الآتي: هل يجرؤ مسلم في أيامنا هذه مهما بلغ استهتاره على أن يبصبص إلى النسوان

الحاجّات في المشاعر المقدسة؟ وهل تجرؤ حاجّة مهما كانت درجة انحلالها ــ على أن تبادل حاجّاً نظرات مشبوبة في يوم عرفة أو في أيام منى!!

ــ (عن يحيى بن كثير عن عطاء بن السائب قال: كنا عند عبد الله بن الحارث فقال: أتدرون لمن قال رسول الله ــ ﷺ ــ: «من كذب عليَّ فليتبوأ مقعده من النار» قال: قلنا: لا، قال إنما قال ذلك من قِبَل عبد الله بن أبي جذعة أتى ثقيفاً بالطائف فقال: هذه حُلَّة رسول الله ــ ﷺ ــ أمرني أن أتبَّوأ أيّ بيوتكم شئت فقالوا: هذه بيوتنا فتبوأ أيها شئت، فانتظر سواد الليل فقال: أتبوَّأ أي نسائكم شئت، فقالوا: إنَّ عهدنا برسول الله ــ ﷺ ــ يحرّم الزنا فسنرسل إليه رسولاً فسار إليه وقدم عليه عند الظهر فقال: يا رسول الله أنا رسول ثقيف إليك إن ابن أبي جذعة أتانا فقال: هذه حلة رسول الله ــ ﷺ ــ أمرني أن أتبوأ أي بيوتكم شئت فقلنا هذه بيوتنا فتبوأ أيها شئت فانتظر سواد الليل فقال: أتبوأ أيّ نسائكم شئت فقلنا: عهدنا برسول الله ــ ﷺ ــ وهو يحرِّم الزنا فغضب رسول الله ــ ﷺ ــ غضباً شديداً لم أرى أشدَّ منه.

ثم أرسل رجلين ليقتلاه ويحرَّقاه بالنار... ثم قال: لا أركما تأتيناه إلاّ وقد كُفيتماه... فخرج ابن أبي جذعة في ليلةٍ مطيرةٍ ليقضي حاجته فلدغته حيّة... فأحرقه الرسولان)[٩٤].

وفي رواية الطبراني في المعجم الكبير:

ــ (فغضب رسول الله ــ ﷺ ــ وبعث رجلاً من الأنصار وقال له: اذهب إلى فلان فاقتله وأحرقه بالنار فانتهى إليه وقد مات وقبض فأمر به فنُبش ثم أحرقه بالنار)[٩٥].

هذا الصحابي الذي ائتمنه محمد وأرسله في مهمة وأعطاه حلته كعلامة ــ وهكذا كانوا يفعلون في تلك الأيام ــ يخون الأمانة ويحاول أن يستخدم العلامة لتحقيق غرضه الدنيء ويخبر ثقيفاً أنّ محمداً أباح له نساءهم يختار منهن ما يحلو له، ولكن الثقفيين كانوا أذكى منه فلم ينخدعوا، خاصة وأن ما طلبه منهم هو زنا صُرَاح من قِبَلِهِ وديوثة من جانبهم وعهدهم بمحمد أنّه يحرّم ذلك ويحدُّ فاعله فَكَيفَ يأمر به!! والعقاب الشديد الذي أمر بإنزاله بابن أبي جذعة الذي بلغ حد تحريق رمته كان جزاءً وفاقاً.

هكذا كان وصال النسوان ومخالطتهن في ذلك المجتمع، وتلك كانت هيمنته على أفراده حتى إن أحدهم لا يتورع عن أن ينسب إلى محمد أبشع تهمة وذلك في سبيل تحقيق رغبته.

[Blank Page]

٥

الجنس في مجتمع يثرب

لم تكن للزنا عقوبة قبل الإسلام توقعها السلطة الحاكمة خلا العقابَ المعنويَّ الذي ينزله المجتمع بمرتكبه خاصة إن كانت المرأة الزانية من فخذ أو بطن معروف فيقوم هؤلاء بمحو عارهم بطريقتهم الذاتية، أما الرجل الزاني فلا عقاب عليه بل كان البعض يتباهى بذلك ويعده من سمات الرجولة والفحولة وافتخر شعراؤهم بذلك.

ولذا كانت العلاقات المحرّمة متفشية في مجتمع يثرب والأحاديث والأخبار التي تحمل وقائع الزنا والملاعنة تقطع بذلك، ولعل أشهرها:

ــ (واقعة زنا ماعز والغامدية فلا يكاد يخلو ديوان من دواوين السُّنّة أو كتاب من كتب الفقه منها، وسوف نذكرها عندما ندرس مشكلة «المغيَّبات» التي أشرنا إليها في مقدمة هذه الدراسة، لأنه يتضح من سياق الحديث أن الغامدية كانت منهن.

ــ (عن عمران بن حصين أن امرأة من جهينة أتت النبي ﷺ ــ وهي حُبْلى من الزنا فقالت يا رسول الله إني أصبت حداً)[٩٦].

حتى الأبكار المخدَّرات في البيوت طالتهن تلك النزعة العارمة التي سيطرت على «المجتمع اليثربي» فأكرهتهن لشدة عرامتها على التفريط في عذريتهن:

ــ (قــال بصرة بن أكثم تزوجت بكراً في سترهــا فدخلت عليها فإذا هي حُبْلى فقال النبي: ــ ﷺ ــ لها الصداق بما استحللت من فرجها والولد عبدٌ لك فإذا ولدت فاجلدوها)(٩٧).

الحديث ورد في واحد من الصحاح فلا مطعن فيه وصاحبة الواقعة على حد تعبير الخبر: بكر في سترها، ومع ذلك سرت إليها نزعة التلاقي بالآخر اقتحمت عليها عقر سترها، فأي قوة وسلطان؟؟

وأخرى:

ــ (روى أبو داود بإسناده أنَّ رجلاً يُقال له نصر بن أكثم نكح امرأة فولدت لأربعة أشهر فجعل النبي ــ ﷺ ــ لها الصداق بما استحل من فرجها وفي لفظ قال: الصداق بما استحللت من فرجها فإذا ولدت فاجلدوها)(٩٨).

والدليل على أنَّ الزّوجة كانت بكراً أنَّ محمداً أمر بجلدها بعد ولادتها إذ لو كانت ثيباً لأمر برجمها.

وهي كسابقتها سيطر عليها هاجس التماسّ الذكر المهيمن على مجتمعها فلم تعبأ بالتفريط في بكارتها وإلحاق العار بأهلها!!!

وهذه ثالثة الأبكار:

ــ (عن ابن عباس قال: تزوج رجل من الأنصار امرأة من بلعجلان فدخل بها فبات عندها فلما أصبح قال: ما وجدتها عذراء، فرفع شأنها

إلى النبي ــ ﷺ ــ فدعا الجارية (الشابة حديثه السن) فسألها فقالت: بلى كنت عذراء، فأمر بهما فتلاعنا وأعطاها المهر)[٩٩].

حتى الجارية أي الشابة الحديثة السن التي بالكاد تخطت مرحلة الطفولة لم تصبر عن التماسّ بالذكر ولا يهم أن بكارتها ستزول، إلى هذه الدرجة بلغ هذا الأمر في ذلك المجتمع!!

وهذه أمثلة فحسب تقطع بأن الزنا كان منتشراً في المجتمع اليثربي ولم تفلت منه الشابات حديثات السن، المخدرات في البيوت.

* * *

عندما انتقل محمد إلى حنايا مجتمع يثرب وعاش فيه وخالط أهله أدرك على الفور أنه مثيل للمجتمع المكي وأن الزنا فيه عملة متداولة ونسق اجتماعي شائع تمارسه حتى الفتيات داخل أسوار البيوت ورغم رقابة الأهل والجيرة، فتوصل إلى حل لهذه الظاهرة الاجتماعية وهو أن يتلو عليهم قرآناً يحرّم الزنا ويصفه بأوصاف بشعة ويجعل له عقوبة (حدّاً)، يختلف باختلاف الزاني فإن كان محصناً يُرجم وإن كان غير محصن يُجلد مائة ثم رفعت آية الرجم قراءة وبقيت حُكْماً.

ولكن شرط إثبات الزنا بأربعة شهود يرون الميل في المكحلة صعب التحقيق خاصة وأن العملية تتم ــ بداهةً ــ في الستر وفي مكان مقفول الأمر الذي يجعل إثباتها مستحيلاً فأفزع هذا الشرط صحب محمد وخاصة الغيورين منهم الذين يتوقعون أن يجدوا رجالاً يعتلون نساءهم، فهل يذهبون لإحضار الشهود؟ هنا يفلت الزاني والزوجة بعد أن يكونا قد استمتعا وقضيا وطرهما وأطفآ شهوتيهما!!!

فإذا رماها بالزنا دون تلك البينة المستحيلة أقيم عليه الحد طبقا للآية: «والذين يرمون المحصنات»[١٠٠] وأرّقت هذه المشكلة حتى صحابة أكابر:

ـــ (فقال سعد بن عبادة: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها (= الآية) حق وأنها من عند الله ولكني قد تعجبت: لو وجدت لُكاعاً قد تفخدها رجل... لم يكن لي أن أهيِّجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله إني لا آتى بهم حتى يقضي حاجته... فما لبثوا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشيَّاً فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيِّجْه حتى أصبح وغدا على رسول الله فقال: إني جئت أهلي عشيَّاً فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما جاء به واشتد عليه)[١٠١، ١٠٢، ١٠٣].

بداية لم يستنكر سعد بن عبادة وهو مَنْ هو أن يجد رجلاً مع امرأته بل ناقش الآية باعتبار أن ذلك أمر جائز الورود ثم إن هلال بن أمية من أعيان الصحابة ومن أغنياء الأنصار وفي الخبر أنه كان عائداً من أرضه (حيطانه وكرومه وبساتينه ونخيله... الخ).

ومع ذلك كانت تخونه زوجته الأمر الذي يدل على انتشار تلك الظاهرة في عوالي المجتمع اليثربي وأسافله ويفسّر لنا لماذا كانت الشابة حديثة السن تفعل ذلك لأنها كانت ترى بعينها أمها وزوجات أبيها وعماتها وخالاتها يفعلن ذلك... ونعود إلى سياق الخبر الذي انتهى بعبارة «فكره رسول الله ـــ ص ـــ ما جاء به أي هلال واشتدّ عليه» ووجه الشدة على محمد أنه يعلم أنّ هلالاً صادق فيما حدَّث به وأن المرأة خؤون ولكن يرى ابن أمية خالياً من البيّنة أو الشهود الأربعة... ومعنى ذلك جلده ثمانين جلدةٍ (على ظهره) وتُخرج له زوجته وشريكها لسانيهما شماتةً!!!

وهي صورة مأساوية ومن هنا كما ورد في الحديث «اشتدّ علي محمد».

ولكن كما رأينا فيما سلف عندما تتأزم المشكلات ويقع كبراء الصحابة في ورطة يسعفهم محمد بالحل بأن يتلو عليهم آيات من القرآن تأتي بالفرج بعد الشدة والسعة بعد الضيق إذ بعد قليل تلا عليهم آيات الملاعنة أو اللعان وهي السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة من سورة النور.

ولم تكن زوجة هلال هي الوحيدة في ذلك بل لأنَّ الظاهرة منتشرة فإننا نقرأ عن زوجات أخريات لاعنهن أزواجهن وسبق أن قرأنا خبر عذراء بلعجلان المتلاعنة:

ــ (هناك أنصاري آخر هو عويمر بن أبيض العجلاني دخل بيته فوجد رجلاً ممتطياً زوجته فرفع الأمر إلى محمد، وتلاعنا أمامه)[١٠٤].

ــ (قال الحافظ ابن حجر: اختلف الأئمة في هذه المواضع فمنهم من رجّح أنها (آيات اللعان) نزلت في شأن عويمر (صاحب الخبر الأخير) ومنهم من رجَّح أنها نزلت في شأن هلال (صاحب الخبر الأول) ومنهم من يجمع بينهما)[١٠٥].

وسواء كانت آيات اللعان نزلت في شأن هلال أو في شأن عويمر فالذي لا شك فيه أن زوجتَيْهما قد زنتا وخانتاهما لأن بقية الخبرين: أن الولدين جاء أشبه بالزانيين، والزوجتان صحابيتان بل إن إحداهما وهي زوجة هلال خاطبت محمداً في واقعة سابقة وخاطبها.

وخبرا زنا الصحابيتيْن زوجتيْ الصحابييْن هلال وهو من

المشهورين وعويمر، لا يخلو منهما كتاب من كتب التفسير ولا مؤلَّف في الفقه على جميع المذاهب لأنَّ هاتين الواقعتين كانتا السبب في تشريع اللعان أو الملاعنة بين الزوجين فكُتب التفسير تتحدث عن اللعان عند تفسير آياته وكُتب أسباب النزول تورد المناسبتين، وكُتب الفقه عند شرح اللعان وشروطه وموجباته وأثاره[١٠٦]، والذي دفع الصحابيتين زوجتيْ الصحابيين هلال وعويمر إلى الزنا معروف ومنتشر بين طبقات ذلك المجتمع كافة، إذ لم تكن الخيانة بدافع الحاجة إذ لم يؤثر عن هلال أو عويمر الفاقة والعوز بل العكس هو الصحيح فقد ذكرنا أن هلالاً كان صاحب بساتين وأن عشية واقعة الخيانة كان راجعاً من حيطانه ــ ولا بسبب الانتقام من الزوجين لأنهما كانا يخادنان غيرهما من النسوان، أمّا إذا كان ذلك بدافع المتعة ومتعة التماسّ بالذكر التي كانت طاغية على الإناث في ذلك المجتمع فقد كان هلال بن أمية كما وصفته زوجته لمحمد عند تخلفه دون عذر في غزوة تبوك بقولها (إنه والله ما به حركة إلى شيء)[١٠٧] عندما طلب منها محمد ألاّ يقترب منها، وتلك العبارة كناية عن عجز زوجها المطلق عن المجامعة أو بتعبير صحابية أخرى: «إن ما معه مثل هدبة الثوب!».

ذلك أن هلال بن أمية من الثلاثة الذين خُلِّفوا عن محمد في غزوة تبوك فأمر تابعيه المسلمين باعتزالهم حتى زوجاتهم ولا شكّ أن محمداً كان يدرك أهمية اعتزال المخلّفين عن زوجاتهم ومدى وقع ذلك عليهم وتأثيره في نفوسهم لأنه سيحرمهم من الطقس اليومي الذي دأب أفراد ذاك المجتمع على ممارسته ذكوراً وإناثاً حتى ولو بطريقة غير مشروعة بل ولو أدى إلى أن تفقد الفتاة بكارتها!!!

فجاءت زوج هلال بعد أمر الاعتزال إلى محمد تستأذنه في خدمة

(=هلال) لأنه شيخ كبير لا يقدر على خدمة نفسه فَأذنَ لها بالخدمة بشرط عدم الملامسة فردت على محمد بتلك العبارة... إذن كان من البديهي أن تبحث تلك الزوجة عن الشاب الفتيّ العفيّ الذي كله حركة وشدة ليروي ظمأها ويعوضها عن حرمانها وعن هرم زوجها.

أما الصحابي الآخر الذي خانته زوجه: عويمر بن أبيض العجلاني فكما وصفه الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما «مصفراً قليل اللحم» كناية عن الضعف والمرض فكيف لا تبحث زوجه عن شاب جلد قوي صحيح يشبعها ويرضيها. هذا هو الدافع الباعث للصاحبتين زوجتيْ هلال وعويمر لخيانة الزوجيْن وهو ذاته مسيطر على أفراد ذلك المجتمع.

وفي الحالتين جاء المولود شبيهاً بالشريك الخدين أو الخليل وهو ما يقطع بزنا الزوجتين. ومن طريف ما يذكر أن هذا الشريك في الحالتيْن هو الصحابي شريك بن سحماء وهو رجل مكتمل الرجولة، ظاهر الفحولة فقد شهد مع أبية عركة أُحد[١٠٨] التي وقعت في السنة الثانية والملاعنة في التاسعة، أي خلال السنوات السبع اكتملت رجولته وتنامت فحولته وأوردت الأخبار نقطة هامة وهي أنه بَلَويّ من بليّ ولكنه كان حليفاً للأنصار[١٠٩، ١١٠]، أيْ يعرف أحوالهم ومداخلهم ومخارجهم وعلى خلطة تامة بهم وظروف نسوانهم ومن الذي زوجها شيخ ليس به حركة للمفاخذة ومن التي زوجها مصفر قليل اللحم أي ضعيف مريض لا طاقة لديه للمباطنة... من أجل هذا تلاقت رغبته مع رغبتيهما لأنَّ الدافع لديهم جميعاً وهم أبناء وبنات المجتمع اليثربي عارم ومتوقد.

[Blank Page]

٦

مشكلة «المغيَّبات»

ــ (جميع ما غزا رسول الله ــ ﷺ ــ بنفسه سبعاً وعشرين غزوة... وكانت بعوثه وسراياه ــ ﷺ ــ ثمانية وثلاثين من بين بعث وسرية)[١١١].

وكان عدد السرية أو البعث أو الغزوة يتراوح ما بين أفراد وعشرة آلاف كما في فتح مكة[١١٢]. ولم يكن تابعو محمد كلهم يخرجون في السرايا والغزوات والبعوث بل تبقى الغالبية العظمى وتظل بيوت الخارجين مكشوفة ورغبة التماسّ بين نسائهم والقاعدين أو المخلفين على ما وصفنا، لذا غدت هذه مشكلة اجتماعية حارقة وهي «مشكلة المغيَّبات» وهنّ اللائي غاب عنهنّ أزواجهنّ.

كان على محمد أن يواجهها بحسم لضرورة توالي السرايا والغزوات التي هي ضمان بالغ الأهمية للدين الذي جاء به والدولة القرشية حُلم أجداده وآبائه التي أقامها في يثرب، وبلغت إحصائية ابن هشام في السيرة النبوية خمساً وستين في عشر سنين أي خمسين يوماً

على وجه التقريب لكل غزوة أو سرية أو بعث ومن المستحيل على محمد أن يكف عن إرسالها وبصورة منتظمة تحصيناً لدينه وتثبيتاً لدولته التي وضع حجر أساسها جده الأعلى قصي بن كلاب[١١٣].

وكان عليه من جانب آخر أن يضمن لجنوده الخارجين في الغزوات والسرايا تغطية مواعينهم وستر بيوتهم وصيانة أعراضهم، وعدم انفلات (المغيَّبات) بعد مبارحتهم يثرب/ المدينة، خاصة أن هناك من هم على استعداد كامل للالتقاء بهن.

من أجل هذا قابل محمد «مشكلة المغيَّبات» بحزم وصرامة شديديْن وأصدر بشأنها أحاديث توقع الرهبة البالغة في نفس كل من يقترب مجرد اقتراب من هؤلاء «المغيَّبات» المتعطشات، وقلنا إن أحاديثه لها قدسية كبيرة لدى أتباعه ولو أنها تجئ في الرتبة التالية للقرآن: ــ

ــ (عن سليمان بن بريدة قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ: حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، ما من رجل يخالف إلى امرأة رجل من المجاهدين إلاّ وقف يوم القيامة فقال: هذا خانك في أهلك فخذ من عمله ما بدا لك فما ظنكم)[١١٤].

في هذا الحديث يسوّي محمد بين حرمة الأم وحرمة المغيَّبة أي من يزني بزوجة الخارج فكأنما زنى بأمه ومن يفعل ذلك يُفضح علانية على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ويمكن للخارج اقتصاصاً منه أن يضع يده على جميع حسناته!!

وهي عقوبات صوارم قصد منها معالجة المشكلة بل القضاء عليها، ولكن هل أفلحت في ذلك أم أن النزعة الغلابة لدى الطرفين ظلت كما هي، هذا ما سوف نراه.

ـ (في حديث علي ـ رضي الله عنه ـ قال يا رسول الله ـ ﷺ ـ: ... من آذى مجاهداً في أهله فمأواه النار لا يخرجه منها إلاّ شفاعة المجاهد لله إن فعل ذلك)[١١٥].

هنا تتساوى جريمة الزنا بزوجة الخارج في غزوة أو سرية بالكبائر التي تخلد مرتكبها في النار لأن احتمال شفاعة الخارج للزاني مع زوجته منعدم تماماً.

ـ (مثل الذي يجلس علي فراش المغيّبة مثل الذي ينهشه أسود أي ثعبان من أساود يوم القيامة)[١١٦، ١١٧].

إن صدور هذه الأحاديث الباترة كحد السيف يقطع بأن المشكلة متفاقمة وتزداد اتساعاً ولا توجد في الأفق بادرة حل لإنهائها كما يتضح مما يلي:

ـ (عن جابر بن سمرة قال: بعد رجم ماعز بن مالك (صاحب الغامدية التي يفهم من سياق الحديث أنها كانت إحدى المغيَّبات) خطب رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أكلما نفرنا في سبيل الله عز وجل خلف أحدهم نبيباً كنبيب التيس يمنح إحداهن الكثبة، أما والله إن يمكنّي الله من أحدهم منهم إلاّ نكلته عنهن)[١١٨] والنبيب: الصياح والتيس ذكر الماعز. والحديث يُصوّر بعبارات بليغة أحوال القاعدين الذين يحومون حول المغيَّبات وتشبيهه لهم بالتيوس التي تصيح إغراءً لإناث الماعز تشبيه مُستقىً من البيئة. وهو (= الحديث) يدل على أن المشكلة لم تكن فردية بل جماعية بل أنها تحولت إلى ظاهرة اجتماعية وإلاّ لما جاء وعيد محمد شديداً وصل حد النكال والتنكيل ـ إنما الذي لا مرية فيه أنّ تلك الأحاديث رغم قساوة العقوبات التي حملتها وصرامة الوعيد الذي

بشَّرت به لم تمنع التيوس من القاعدين من الدخول على المغيَّبات والاستمتاع بهن فقد رأينا فيما سلف حكاية الأنصاري الذي دخل على زوجة (أخيه) الثقفي الذي كان خارجاً في غزوة أو سرية... وكذلك فهمنا من سياق قصة الغامدية صاحبة ماعز أنها (مغيّبة) فأغراها مالك أو ربما هي التي أغرته والأصح أنه تلاقت رغبتاهما وسلك محمد في علاج مشكلة المغيَّبات طريقاً آخر وهو نهي الأزواج عن مفاجأة زوجاتهم ليلاً ويسمى «الطروق ليلاً»:

ــ (إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلك حتى تستحدّ المغيّبة وتمتط الشعثة)[١١٩]. والاستحداد هو حلق العانة وتسمية العامة في مصر: «النتف»[١٢٠]. وهي كلمة عربية فصيحة، والشعثة هي التي تفرق شعرها لعدم الامتشاط.

ــ (إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً)[١٢١].

ــ (قال النبي ــ ﷺ ــ: لا تطرقوا النساء ليلاً حتى تمتشط الشعثة وتستحدّ المغيّبة)[١٢٢].

وقيل إن بعض الصحاب خالف هذه الأوامر الصريحة وطرق أهله ليلاً ففوجىء بزوجته في أحضان رجل وكان من الحتم اللازم أن يتوقع ذلك، أليس هو ابن «مجتمع يثرب» وربيبه!!!

من الواضح أنَّ محمداً بنهيه صحبه عن دخول بيوتهم ليلاً هو أن يجنبهم المرور بتجربة قاسية تحطّم معنوياتهم وتمنعهم من الانخراط مرة أخرى في سراياه وغزواته وبعوثه ونعني بها تجربة مشاهدة الزوجة تحت رجل آخر لأن الاستحداد والامتشاط والاغتسال والتزيُّن والتعطر... الخ..

لا تستغرق جميعها من الزوجة أكثر من ساعة، وهذه لا تساوي أن يقضي الزوج الليل بطوله خارج بيته خاصة وأنه قد عاد مجهداً معفراً...

ولماذا لم ينههم محمد على الدخول عن الزوجات نهاراً وحالتهن في الليل أو النهار واحدة: عدم الاستحداد والامتشاط... وما الفرق بين أن ينتظر الزوج حليلته بعض الوقت حتى تتزين له سواء بالنهار وبالليل؟

إن محمداً الحصيف كان يعرف أن الليل هو الوقت المفضل لتلاقي الأخدان خاصة في ذلك الزمان إذ لم تكن إنارة الشوارع والطرقات قد عُرفت بعد وأدوات الإضاءة كانت آنذاك ضعيفة واهنة كليلة تمكِّن من الدخول والخروج في أمان خاصة وأن الناس قد أوت إلى مساكنها وانقطعت الأرجل السابلة...

لهذا نهى محمد أتباعه عن الدخول على الزوجات المغيَّبات في ظلمة الليل حتى لا يفاجأوا بما لا يسرهم بل يفزعهم ويفجعهم ويدفعهم إلى الإحجام عن الخروج.

* * *

واستمرت «مشكلة المغيَّبات» بعد وفاة محمد فقد قرأنا في خلافة عمر ما يدل على ذلك:

ـ (روى أبو حفص عن زيد بن أسلم قال: بينما عمر بن الخطاب يحرس المدينة فمر بامرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسودَّ جانبه ... وطال عليّ ألا خليل ألاعبه

والله لولا خشية الله وحده... لحرِّك من هذا السرير جوانبه

(وفي رواية لزُلزل) فسأل عمر عنها فقيل له: هذه فلانة زوجها غائب في سبيل الله فأرسل إليها امرأة تكون معها وبعث إلى زوجها فأقفله، بعدها كتب إلى أمراء الأجناد: لا تحبسوا رجلاً عن امرأته أكثر من أربعة أشهر)[١٢٣].

إرسال ابن الخطاب امرأة إلى المتشوقة لزلزلة السرير مقصود منه مراقبتها حتى يؤوب زوجها خشية أنْ تدفعها النزعة العارمة إلى خدن أو خليل يزلزل بها سريرها بعد أن طالت غيبة زوجها ولو كان عمر يثق فيها لما فعل ذلك وإرساله الرقيبة يرجع إلى معرفته بأحوال «المجتمع اليثربي»...

أما سبب توقيت مدة غيبة الزوج بأربعة شهور فمرده أنه سأل النسوة عن المدة التي تصبر فيها المرأة عن المجامعة فأجبته: أربعة أشهر ــ ولكن ذلك القرار لم يحسم تلك المشكلة ذات الجذور العميقة لأن الأشهر الأربعة هي الحد الأقصى لا الحد الأدنى، خاصة وأن نسوة ذلك المجتمع تعودن على المباطنة اليومية ومن ثم استمرت المشكلة دون حل:

ــ (عن الحسن قال: أرسل عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ إلى مرأة مُغيّبة كان يُدخل عليها فأنكر ذلك فأرسل إليها فقيل لها: أجيبي عُمَرَ فقالت: يا ويلها ما لها ولعمر... الخ)[١٢٤].

وعبارة «يُدخل عليها» واضحة تفسر نفسها وفزع المغيّبة المدخول عليها من طلب عمر لها ودعاؤها على نفسها بالويل والثبور وعظائم الأمور دليل على أنها كانت مُريبة أو إذا شئت الدقة أنها مُغيّبة نموذجية أي

يتوافق سلوكها مع موجبات وأنساق وأعراف «مجتمع يثرب» الذي كانت نزعة التلاقي والتماس مع الآخر فيه غالبة.

* * *

تلك جولة ــ على طولها النسبي ــ نراها قصيرة في «مجتمع يثرب» إبّان العهدين المحمدي والخليفي من زاوية واحدة هي علاقة الرجل بالمرأة (والمرأة بالرجل).

والعهد المحمدي هو عهد التدشين والتأسيس والتبليغ والتكوين... أمّا العهد الخليفي فهو حقبة التشييد والانسياح والتوسع والإعلام... والعهدان في نظرنا على درجة قصوى من الأهمية وخاصة أولهما.

ومع ذلك لم يأخذا حقهما من الدراسة الموضوعية المنهجية العلمية، من كافة النواحي: العقائدية أو الدينية والاجتماعية والاقتصادية بل والعسكرية... الخ.

وإن كان هناك ركامٌ هائلٌ من الكتابات الخطابية الإنشائية عنها.

وكتب التراث بمختلف أنواعها تنضوي على مخزون ضخم ضخامة لا يتصورها القارئ العادي من المعلومات عن الفترة المحمدية خاصة ثم عن العصر الخليفي. وكثيراً ما لفتنا النظر إلى أن الكتابة عن هاتين الحقبتين من القصور البيّن بل من السذاجة المفرطة بمكان لأن الاعتماد فيها على كتب التاريخ وحدها ــ مع تقديرنا البالغ لها ولأصحابها ــ والإعراض عن دواوين السنة بمختلف أسمائها ورتبها وكتب أسباب النزول وتفسير القرآن والناسخ والمنسوخ والقراءات والعدد في القرآن ومناسبات ورود الحديث والجرح والتعديل والمتروكين والمدلَّسين وكل

علوم الحديث ومؤلفات الفقه منذ نشأته في يثرب وقبل ظهور المذاهب ثم بعد ظهورها والمذاهب المندرسة والمندثرة والباقية والمستمرة وعلم أصول الفقه وكتب الطبقات في شتى المجالات وعلم الكلام... الخ.

وعن كتب الأدب والأمالي والنوادر.. (هذه نذكرها كمصدرٍ ثانٍ).

إنّها جميعها أرَّخت لهذين العهدين تأريخاً دقيقاً ولكن بطريقتها الخاصة التي هي من البديهي ألا تجئ مطابقة لطريقة المؤرخين وتبتعد عن السرد التاريخي...

ولكن بها كنوز ــ وليس في هذه اللفظة أدنى مبالغة ــ من الأحداث والأخبار والنوازل والخطب والرسائل المساجلات والمحاورات...

التي تضئ بشكل باهر ومبهر جميع النواحي في المجتمعيْن المحمدي والخليفي وخاصة الأول منهما وذلك للعناية البالغة التي أولها مصنفو وواضعو وجامعو ومؤلفو... تلك الكتب لشخصية محمد حتى إننا نؤكد أنّهم لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة عن ذلك العهد ولها علاقة بمحمد إلاَّ دوّنوها ولما كان هو محور ذلك العهد فمعنى ذلك أنهم سطروا كل شيء عنه، ثم بدرجة أقل عن الحقبة التالية له أي الحقبة الخليفية.

وفي مذهبنا أنهم أدوا أمانتهم ولا يطلب منهم أكثر من ذلك، ولا ينال من عملهم الجبار ذاك ما لحقه من تبرير وتلفيق وتزويق حاولوا أن يبرروا به أو يجمّلوا به بعض الوقائع من أشخاص يكنون لهم في نفوسهم قداسة أو تقديراً فهذه مسألة يعذرون فيها.

والعين البصيرة الناقدة التي تقرأ بوعي والتي نزعت عنها القداسات

الزيوف ــ التي عادة ما تصاحب القارئ لهذه الكتب ــ هذه العين تستطيع بقدر من التمحيص أن تكشف تلك التبريرات والتلفيقات والتزاويق وتنحيّها جانباً وتعكف على الوقائع نفسها تدرسها دراسةً موضوعيةً وتبحثها بحثاً علمياً مجرداً وتحللها تحليلاً دقيقاً، كما فعلنا ــ على قدر جهدنا وطاقتنا ــ في هذا البحث. فالأخبار والنوازل والوقائع والأحداث التي أوردناها معجونة ــ في مصادرها الأصلية ــ عجناً بالتبريرات والتسويغات والتلفيقات والتزاويق والتجميلات.. الخ ولكننا استطعنا بعد قراءة أو قراءات مستأنية متمسكة بحبال الصبر، وبعيون ناقدة متحرّرة من غبش التقديس الزائف أن ننفض عنها كل ذلك ونعيد قراءتها قراءةً جديدةً نحّت جانباً هالات التبجيل المصطنعة وحللناها وعرضناها بموضوعية لعل القارئ قد أدركها.

ومن المهم بمكان أن نذكر أن هالات التفخيم والتعظيم بدأت في تلك المؤلفات مبكرةً للغاية ربما منذ «عصر التدوين» لأن كاتبيها أو مؤلفيها أو جامعيها يكتبون عن أناس لهم في نظرهم قدرٌ وفيرٌ من القداسة، وليس صحيحاً أن التفخيم والتبجيل والتعظيم لم تعرفها إلاّ كتابات ما يسمى بكل مجانية وخفة بـ «عصور الانحطاط» وإنْ كانت النبرة زادت زيادة واضحة والعبارات تضاعفت والنهج نفسه تضخم أو لنقل إنه تورَّم في هذه العصور ولكن الذي لا شك فيه أن البذرة كانت موجودة منذ البدايات الأولى وهذا أمر طبيعي.

وعجبي يتزايد يوماً بعد يوم من كليات العلوم الإنسانية في الجامعات المصرية والعربية والإسلامية التي لم تلتفت منذ نشأتها إلى تلك الدواوين والكتب والمؤلفات... الخ كمصدر رئيسي للتاريخ والتقييم للحقبة المحمدية على وجه خاص ثم من بعدها للحقبة الخليفية،

واعتمادها فقط على كتب التاريخ وحتى لا يساء فهمنا نكرر العبارة السابقة «مع تقديرنا لها ولواضعيها».

وكم أسفت بل تألمت وتوجعت وأنا أطالع ــ مؤخراً كتاباً ألّفه أستاذٌ كبيرٌ مقاماً وسناً ــ في إحدى كليات العلوم الإنسانية بجامعة مصرية وصاحب اسم لامع في سماء الفكر في العالم العربي لا في مصر وحدها، وهو يصف تلك المؤلفات التي ذكرناها بـ «الكتب الصفراء» وتحدث عنها بسخرية مريرة واستهزاء شديد واستكبار واضح، وإني على ثقة كاملة أنه لم يفتح كتاباً واحداً منها بل ولم يقرأ سطراً يتيماً فيها، وكيف يُصدر عالم حكماً على شيء لم يطّلع عليه، ومن المحزن أن المادة التي يدرسها ويؤلف فيها وثيقة الصلة بهذه «الكتب الصفراء».

إن ما تحتويه هذه الذخائر يهمّ استثناء كل العلماء في: ــ

علم الاجتماع ــ في سائر فروعه ــ والأنثروبولوجيا وخاصة الدينية والاقتصاد والسياسة والتاريخ والتربية والإعلام والأدب واللغة بل والعلوم العسكرية؛ وتحتاج إلى كتائب ــ ولا أقول كتيبةٌ واحدة ــ من الدّارسين والباحثين والعلماء لدراستها وبحثها وتمحيصها وتبويبها وتصنيفها وتحليلها وغربلتها... الخ.

ولا صلة لهذه الدعوة التي أطلقها وأنادي بها بأعلى صوتي بما يسمى بـ «معركة الأصالة والحداثة» أو «معركة التراث والتجديد» التي أصبحت الكتابة فيها ممجوجة ومُملّة ومستهلكة وبائخة[١٢٥] بعد أن أهرقت فيها بحور من الحبر، ولا يشكّل ذلك تعصباً مني لـ «التراث» ولا انبهاراً به، فليس إلى شيء من هذا قصدت بل ربما يكون العكس تماماً هو الصحيح:

إنَّ هذا الضرب من الدراسات والبحوث الذي ندعو إليه بكل ما نملك من قوة سوف يؤدي بطريق الحتم واللزوم إلى تفكيك «القباب المقدسة» قداسات زيوف والتي تخيّم على العقل العربي (بما فيه المصري) منذ قرون فتحجب عنه الهواء النقي والشمس الساطعة وإلى كسر القيود التي تكبله وتمنعه من الانطلاق إلى الآفاق الرحيبة والفضاءات غير المحدودة التي تسبح فيها عقول الآخرين وإلى تسليط الأنوار الكاشفة على «النصوص» لتُعرف على حقيقتها، وساعتها ينعتق المخاطبون بها من هيمنتها وتسلطها عليهم في كل مناحي حياتهم حتى عندما يدخلون أماكن قضاء الحاجة!!!

وإلى تعرية رموز كبيرة الشأن رفيعة المقام ونزع الهالات المصطنعة التي أحاطوها بها وعَرْضِها بالصورة الحقيقية الواقعية بلا رتوش كما هي مرسومة في كتب التراث بعد إقصاء التزويقات والتجميلات التي أشرنا إليها فيما سلف، وساعتها سوف يصيح من «يعاينها على الطبيعة»: كم كنا مخدوعين!!

وسوف يؤدى إلى تحطيم «الأساطير» التي يؤمن بها حتى حملة الإجازات العلمية الجامعية الرنانة وبعضهم أحضرها من بلاد «الفرنجة»!!!

* * *

ولكن ما الهدف من وراء ذلك كله؟

والجواب: إن تحرير العقل العربي (وطبعاً المصري) من القيود التي تكبله والفكر العربي «وطبعاً المصري» من «النصوص» و«الأساطير» التي تشلّ حركته، من أهمّ الدوافع إنْ لم تكن أهمها جميعاً والتي ستساهم

في انتشال مجتمعاتنا من وهدة التخلف التي تتردى فيها منذ قرون.

والسؤال الخاتم الذي حَيّرَني وأقضَّ مضجعي منذ أعوام طوال: متى تُنجز تلك الدراسات والبحوث؟

بل: من يجرؤ على مجرد الاقتراب منها الآن؟

المصادر والهوامش

١ ـــ في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية. **الساذج:** الخالص غير المشوب وغير المنقوش، وفي **القاموس المحيط** هو ثوب سادة. أما فيما اصطلح عليه العامة فهو البسيط ـــ مخموم القلب ـــ أو ـــ طيب القلب. ونحن لا نقصد هذا المدلول.

٢ ـــ في **المعجم الوسيط/ فز الرجل فزوزة:** نشط وتوقد.

٣ ـــ في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي **نزع الرجل** إلى أهله نزوعاً **(**بالضم**)** أي اشتاق. وفي **المعجم الوسيط النزوع:** حالة شعورية ترمي إلى سلوك معين لتحقيق رغبة ما.

٤ ـــ **الجامع الصحيح** مسند الربيع بن حبيب البصري الجزء الثاني ص ٣١ على ترتيب أبي يعقوب يوسف الورجلاني، د. ت. ن. ـــ مكتبة الثقافة الدينية بمصر.

٥ ـــ **السيرة النبوية** للإمام أبي محمد بن عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣هـ ـــ تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد الجزء الرابع ص ٢٤١ طبعة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م نشر: مكتبة الحاج عبد السلام بن شقرون ـــ بمصر.

٦ ـــ **تفسير القرطبي** الجامع لأحكام القرآن، ص ٤٩ ـــ د. ت. ن. ـــ طبعة دار الشعب بمصر.

٧ ـــ **المصدر نفسه** والصفحة ذاتها.

٨ ـــ **فتح المغيث**، ج ٤ ـــ ص ٣٩، **وتلقيح فهوم الآثار**، ص ١٢٨أ.

نقلاً عن كتاب **السنة قبل التدوين**، ص ٤٠٦ والهامش، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م، دار الفكر للطباعة والنشر/ بيروت ــ لبنان.

٩ ــ **تفسير القرطبي**، ص ٤٦ ــ مصدر سابق.

١٠ ــ **المصدر نفسه**، ص ٤٥.

١١ ــ **طبقات ابن سعد وفتح الباري ومسند أحمد وحلية الأولياء**. نقلاً عن كتاب **السنة قبل التدوين** ــ ص ٤٢٣ وهامشها ــ سابق.

١٢ ــ أخرجه البخاري ــ نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة**، ص ١٤٠ من الجزء الثالث، محمد يوسف الكاندهلوي، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م الناشر ــ دار الوعي، حلب سوريا. كذلك أخرجه مسلم في **الصحيح** بلفظ مقارب وهو متفق عليه.

١٣ ــ أخرجه ابن سعد في **الطبقات الكبرى** نقلاً عن **حياة الصحابة** ج ٣، ص ١٦٨، سابق.

١٤ ــ أورده البيهقي في السنن **الصغرى** وذكر له رواية أخرى عن إسرائيل عن سماك.

١٥ ــ كتاب **الخراج** للقاضي أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنفية، ص ١٦٥، الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ، نشر: المطبعة السلفية ومكتبتها بمصر.

١٦ ــ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٨٢، طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، الناشر: مؤسسة الحلبي بالقاهرة. يقول الواحدي إنها سبب نزول آية (والذين إذا فعلوا فاحشة...).

١٧ ــ **المصدر ذاته**، ص ٨١.

١٨ ــ رواه البخاري عن طريق يزيد بن زريع ومسلم عن يحيى في **الصحيحين**. من **المصدر نفسه** والصفحة نفسها.

١٩ ــ **المصدر نفسه**، الصفحة ١٨٠.

٢٠ ــ **البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف**، تأليف إبراهيم بن محمد الشهير بـ ابن حمزة الحنفي، ت ١١١٠هـ، حققه وعلق عليه الشيخ الحسيني هاشم، الجزء الأول، ص ٧٦، طبعة ١٩٨٥م، الناشر: مكتبة مصر.

٢١ ــ **مبادئ علم النفس العام**، د. يوسف مراد، الطبعة الثالثة ١٩٥٧م، دار المعارف بمصر.

٢٢ ــ **محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي**، تأليف سيجموند فرويد، ترجمة د.

أحمد عزت راجح د. ت. ن.، ص ١٢٠، ص ١٨٢ مكتبة الأنجلو مصرية.

٢٣ ــ **المرجع نفسه**، ص ١٨٣.

٢٤ ــ **سنن الدرامي**، المجلد الأول، ص ١٩٥ وأورده البيهقي في **السنن الصغرى**، المجلد الأول، ص ١٦١ ونقله عن مسلم في الصحيح ابن قدامة في كتاب **المغنى**.

٢٥ ــ أخرجه أحمد في مسنده وقال الهيثمي هو في **الصحيح** باختصار.

٢٦ ــ **البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف**، الجزء الأول، ص ١١٣، مصدر سابق.

٢٧ ــ **كتاب المغازي** للواقدي محمد بن عمر بن واقد المتوفى ٢٠٧هـ، ص ٥٤ من الجزء الأول، تحقيق د. مارسدن جونز، د. ت. ن.، مؤسسة الأعلمي لبنان.

٢٨ ــ رواه البخاري ومسلم في **الصحيحين**. وجاء في **مسند الربيع** عن أم سلمة، الجزء الثاني، ص ٣٨. وأورده ابن كثير في **التفسير**، المجلد الأول، ص ٤١٩، طبعة دار الشعب.

٢٩ ــ **سنن الدرامي**، المجلد الثاني، ص ١٤٠.

٣٠ ــ رواه أحمد في **مسنده** والبخاري ومسلم والنسائي ومالك في **الموّطأ** والدرامي في **السنن** مج/ ١ ص ١٢٦ وابن كثير في **التفسير**، المجلد الأول، ص ٤١٠، طبعة دار الشعب بمصر؛ وابن عبد البر في **الاستيعاب في معرفة الصحاب**، المجلد الثاني، تحقيق محمد علي البجاوي، ص ٥٠٠، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢، دار الجيل، بيروت؛ السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير**، الجزء الأول، ص ١٣٥، طبعة مجمع البحوث الإسلامية بمصر.

٣١ ــ هذه الواقعة رواها مالك في **الموطأ** وأحمد في **المسند** والنسائي وابن ماجه. والحافظ أبو بكر بن مردويه وابن كثير في **تفسيره** في الجزء الأول، ص ٤٠٢ ــ ٤٠٤، مصدر سابق.

٣٢ ــ **الروض الأنف** للسهيلي على هامش **السيرة النبوية** لـ ابن هشام، الجزء الرابع، ص ٦٤ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، د. ت. ن. ــ مكتبة شقرون بمصر وأوردها ابن عبد البر في **الاستيعاب**، المجلد الأول، ص ٣٢٦. والقصة مشهورة ومتداولة في كتب السير والتاريخ والأمالي... الخ.

٣٣ ــ رواه أبو داود في **سننه** الجز الثاني، ص ٢٢٠،

٣٤ ــ الآية ٤٣ من **سورة النساء**.

٣٥ ــ الآية السادسة من **سورة المائدة**.

٣٦ ــ أورده الشهاب البوصيري في **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**.

٣٧ ــ أورده ابن عبد البر في الاستيعاب، المجلد الأول، ص ١١٨، سابق.

٣٨ ــ **أُسد الغابة في معرفة الصحابة** لعز الدين بن الأثير الجزري، ص ٤٣٠ من المجلد الثاني، د. ت. ن.، مطبعة دار الشعب بالقاهرة.

٣٩ ــ **الشرح الكبير** لابن قدامة المقدسي، على هامش **المغنى**، المجلد الثالث، ص ٣٣٠، الطبعة الأولى، دار الغد العربي بالقاهرة.

٤٠ ــ **الاستيعاب**، ابن عبد البر، المجلد الثاني، ص ٦٨٨، مصدر سابق.

٤١ ــ **أسد الغابة**، ابن لأثير الجزري، المجلد الثاني، ص ٦٦٤، مصدر سابق.

٤٢ ــ **سنن الدرامي**، المجلد الثاني، ص ١٧٧، مصدر سابق.

٤٣ ــ **مسند الربيع**، الجزء الثاني، ص ٤٧، مصدر سابق.

٤٤ ــ **الاستيعاب**، ابن عبد البر، المجلد الأول، ص ٢٩٥، مصدر سابق.

٤٥ ــ **المغنى**، ابن قدامة، المجلد السابع، ص ٥٣٩، مصدر سابق.

٤٦ ــ **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**، للشهاب أحمد أبي بكر البوصيري تحقيق موسى محمد وعزت علي عطية، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، دار الكتب الإسلامية، مصر.

٤٧ ــ الآية الثانية والعشرون من **سورة النساء**.

٤٨ ــ رواه ابن عساكر في تاريخه ونقله السيوطي في **جمع الجوامع**، ص ٩٩١، طبعة مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة.

٤٩ ــ رواه الطبراني.

٥٠ ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ابن الأثير الجزري، المجلد الأول، ص ٣٢٤، مصدر سابق.

٥١ ــ **سنن أبي داود**، المجلد، ص ٨٣.

٥٢ ــ **الاستيعاب في معرفة الصحاب**، ابن عبد البر، المجلد الرابع، ص ١٨١٣، مصدر سابق.

٥٣ ــ في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي: **الوعر** ضد السهل، وتوعر الأمر تعسر، وعارة ووعورة.

٥٤ ــ **سنن الدرامي**، المجلد الأول، ص ٢٥٥ مصدر سابق.

٥٥ ــ أورده ابن كثير في **التفسير**، المجلد الأول، ص ٣٨٢ طبعة دار الشعب، مصدر سابق.

٥٦ ــ والإمام أحمد بن حنبل في **مسنده**.

٥٧ ــ وأبو الحسن الواحدي النيسابوري في **أسباب النزول**، ص ٤٨، طبعة مؤسسة الحلبي بمصر.

٥٨ ــ رواه أبو داود والنسائي وابن حبّان والحاكم في **المستدرك**. نقلاً عن **الجامع الكبير أو جمع الجوامع** للسيوطي، الجزء الأول، ص ٨٨٣، مصدر سابق.

٥٩ ــ أورده ابن كثير في **التفسير**، الجزء الأول، ص ٣١٧، طبعة دار الشعب بمصر، سابق.

٦٠ ــ والواحدي النيسابوري في **أسباب النزول**، ص ٣٠، طبعة مؤسسة الحلبي بمصر، مصدر سابق.

٦١ ــ وابن هشام في **السيرة النبوية**، الجزء الثاني، ص ٢٨٧ مصدر سابق، وأضاف أن ابن الخطاب رمى زوجته بالكذب عندما قالت له: إني قد نمت.

٦٢ ــ في **مختار الصحاح** للرازي: **الورطة**: الهلاك وفي الحديث: **لا خلاط ولا وراط**.

٦٣ ــ **المغني** لابن قدامة ــ المجلد السابع ــ ص ٥٢١ ــ طبعة دار الغد العربي بمصر ــ سابق.

٦٤ ــ **المغنى**، ابن قدامة، المجلد الأول، ص ١٧١، طبعة دار الغد العربي بمصر، سابق.

٦٥ ــ وراثة المسجد في الإسلام لوظائف المسجد الحرام ودار الندوة قبل الإسلام تحتاج إلى عمل **حفرية معرفية** من قبل علماء الأنثروبولوجيا الدينية لمعرفة مظاهر الاتفاق والاختلاف.

٦٦ ــ رواه أبو داود في **سننه**.

٦٧ ــ **المغنى**، ابن قدامة، المجلد السابع، طبعة دار الغد العربي بمصر، مصدر سابق.

٦٨ ــ الحديث رواه الطبراني وهو مرسل ورجاله ثقات، وفي **مجمع الزوائد** نقلاً عن جمع **الجوامع** للسيوطي، ص ٢٠٩٤، ص ٢٠٩٥، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، مصدر سابق.

٦٩ ــ **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، المجلد الأول، ص ٦٣، سابق.

٧٠ ــ **المحاسن والأضداد** للجاحظ، فصل: **محاسن التزويج**، ص ١٢٩ حققه وقدم له المحامي فوزي عطوى، طبعة ١٩٦٩، الشركة اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع.

٧١ ــ في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية / **الفلحاس من الرجال:** القبيح السمح، ونضيف أنَّ العامة في مصر تسميه **الفلحوس**.

٧٢ ــ **الاستيعاب**، ابن عبد البر، المجلد الرابع، ص ١٤٤٦، مصدر سابق.

٧٣ ــ كتاب **فتوح البلدان** تأليف أحمد بن يحيى بن جابر، المعروف بِ البلاذري، القسم الثاني، ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤ وضع ملاحقه د. صلاح الدين المنجّد، د. ت. ن.، مكتبة النهضة المصرية.

٧٤ ــ **أُسد الغابة**، المجلد الثاني، ص ٥٠٣، مصدر سابق.

٧٥ ــ **الاستيعاب في معرفة الصحاب**، الجزء الرابع، ص ٦١٥، مصدر سابق.

٧٦ ــ **المصدر نفسه**، الجزء الثاني، ص ٥٢٤، مصدر سابق.

٧٧ ــ نفس المصدر ونفس الجزء ونفس الصفحة.

٧٨ ــ في **المعجم الوسيط ماع الجسم:** ذاب وسال، وماع السائل: جرى على وجه الأرض، وماع السراب: تموج على الأرض منبسطاً في هينة.

٧٩ ــ **الاستيعاب**، الجزء الرابع، ص ١٦١٥، مصدر سابق.

٨٠ ــ أورد واقعة عزل عمر لزيادة بن عبد البر في **الاستيعاب**، المجلد الثاني، ص ٥٢٤، مصدر سابق.

٨١ ــ **الاستيعاب**، الجزء الرابع، ص ٤٤١، مصدر سابق.

٨٢ ــ في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي **عرام الجيش:** حدتهم وشدتهم وكثرتهم، **وعرم:** اشتدّ، فهو عارم عرامةً (بالفتح) وعراماً (بالضم).

٨٣ ــ روى أبو حفص بإسناده أن عمر بن الخطاب أصدق أم كلثوم ابنة عليّ بن أبي طالب أربعين ألفاً، **المغنى** لابن قدامة المقدسي، المجلد الثامن، ص ٦٣، طبعة الغد العربي بالقاهرة.

٨٤ ــ رواه ابن عساكر عن عمر وكذا الطبراني. وأورده السيوطي في **جمع الجوامع**، الجزء الثالث، العدد ٢، ص ٢٢٨، مجمع البحوث الإسلامية بمصر.

٨٥ ــ **المغنى**، ابن قدامة، المجلد السابع، ص ٥١٩، مصدر سابق.

٨٦ ــ في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي **الخدلّجة** (مشددة اللام): المرأة الممتلئة الذراعين والساقي.

٨٧ ــ **أسد الغابة**، المجلد الثاني ص ٤١٥، مصدر سابق.

٨٨ ــ **السيرة النبوية** لابن هشام، الجزء الثالث، ص ١٥٥، مصدر سابق.

٨٩ ــ **الخدم** في معاجم اللغة هي السوق: جمع ساق، وخدم وخدام المخدرات أي سوق المقصورات في البيوت ويضرب مثلاً للشيء المستور المصون، وفي **القاموس المحيط** للفيروزآبادي/ **الخدم والمخدمة:** رباط السراويل عند أسفل رجل المرأة وكذا أيضاً موضع الخلخال وفي أحيان هي الخلخال نفسه.

٩٠ ــ **الاستيعاب**، المجلد الثاني، ص ٤٢٠، مصدر سابق.

٩١ ــ أورده البخاري ومسلم في **الصحيحين**، والبيهقي في **السنن الصغرى**، المجلد الأول، ص ٣٨٨ والسيوطي في **جمع الجوامع**، الجزء الرابع والعشرون، ص ٢٩١٦؛ وابن قدامة المقدسي في **المغنى**، المجلد الرابع، ص ٤٩ وفي المجلد السابع، ص ٥٢٩، دار الغد العربي بمصر.

٩٢ ــ أورده البخاري ومسلم في **الصحيحين**، والبيهقي في **السنن الصغرى**.

٩٣ ــ **بصبص** السبع إلى فلان: لمع ببصره **المعجم الكبير** لمجمع اللغة العربية، الجزء الثاني، حرف الباء، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، وفي **القاموس المحيط** للفيروزآبادي البصباصة العين.

٩٤ ــ **الجامع الصحيح مسند الربيع بن حبيب البصري**، جـ ٢، ص ٧٤، مصدر سابق. وأورد الطبراني في **المعجم الكبير** برواية عبد الله بن محمد الحنفية عن أبيه. نقلاً عن السيوطي في **الجامع الكبير أو جمع الجوامع**، الجزء الرابع، العدد ١٩، ص ٢٣٢٥.

٩٥ ــ **المصدر نفسه.**

٩٦ ــ كتاب **الخراج** لقاضي القضاة أبي يوسف، ص ١٧٧، الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ، طبعة المكتبة السلفية بمصر.

٩٧ ــ **سنن أبي داود**، الجزء الثاني، ص ٢٤٢، مصدر سابق.

٩٨ ــ **الشرح الكبير**، شمس الدين بن قدامة المقدسي على هامش **المغنى**، المجلد ٨، ص ١٥٧.

٩٩ ــ **سنن ابن ماجه**، المجلد الأول، ص ٦٩.

١٠٠ ــ الآية ٤ من **سورة النور**.

١٠١ ــ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٢١٢، ص ٢١٣، مصدر سابق.

١٠٢ ــ أورده ابن عبد البر في **الاستيعاب** في ترجمة هلال بن أمية، مجلد ٤، ص ١٥٤٢، مصدر سابق.

١٠٣ ــ كما أورده ابن الأثير في **أُسد الغابة** في ترجمة شريك بن سحماء، ص ٥٢٣ من المجلد ٢، مصدر سابق.

١٠٤ ــ أخرجه البخاري ومسلم في **الصحيحين** ومالك في **الموطّأ** في كتاب الطلاق بروايتيْن وابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة عُويمر، المجلد الثالث، ص ١٢٢٦، مصدر سابق. وعز الدين بن الأثير في **أُسد الغابة** في ترجمة عُويمر أيضاً، المجلد الرابع، ص ٣١٧، مصدر سابق، وذكره السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير**، الجزء ٣، العدد ١٠، مصدر سابق.

١٠٥ ــ كتاب **أسباب النزول** للسيوطي، ص ١٢٣، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ، كتاب التحرير بمصر.

١٠٦ ــ انظر على سبيل المثال في كتب الفقه: **المغنى** ابن قدامة، المجلد التاسع من ص ٣٠ حتى ص ٨٨، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، دار الغد العربي بمصر.

١٠٧ ــ **تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، ص ٣١٢٤، طبعة كتاب الشعب بمصر.

١٠٨ ــ **الاستيعاب**، ابن عبد البر، المجلد الثاني، ص ٧٠٥ مصدر سابق.

١٠٩ ــ نفس المصدر ونفس الصفحة.

١١٠ ــ **أُسد الغابة**، عز الدين بن الأثير، المجلد الثاني، ص ٥٢٢.

١١١ ــ **السيرة النبوية**، ابن هشام، تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد، ص ٢٣٣ من الجزء الرابع، نشر: مكتبة شقرون بمصر، مصدر سابق.

١١٢ ــ **المصدر نفسه**، ص ٨٨.

١١٣ ــ **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية**، خليل عبد الكريم، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار سينا للنشر، القاهرة.

١١٤ ــ كتاب **السير الكبير** للإمام محمد الشيباني بشرح الإمام السرخسي، تمهيد وتعليق الشيخ محمد أبي زهرة، تحقيق مصطفى زيد، الجزء الأول، ص ١٤٨، الطبعة الأولى، ١٩٥٨، مطبعة جامعة القاهرة.

١١٥ ــ **المصدر نفسه**، ص ١٤٩.

١١٦ ــ أورد السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير**، الجزء الثالث، العدد الخامس

والعشرون ص ٣١٠٣ من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية بمصر.

١١٧ ــ أورده السيوطي رواية مماثلة عن أبي قتادة وقال: إنه ورد في **مسند** أحمد وفي **المعجم الكبير** للطبراني وفي **الترغيب والترهيب** للمنذري وفي **كنز العمال** وفي **فيض القدير**. **جمع الجوامع**، العدد ١٧ الجزء الرابع، ص ٢١١٤، مصدر سابق.

١١٨ ــ **المصدر السابق**، نفس الجزء، ص ١٤٧.

١١٩ ــ رواه البخاري في **الصحيح** عن جابر بن عبد الله. **جمع الجوامع أو الجامع الكبير**، السيوطي، الجزء الأول، ص ٥٤١، مصدر سابق.

١٢٠ ــ **في المعجم الوسيط نتف** الشعر نتفاً: نزعه ونتشه نتشاً.

١٢١ ــ **جمع الجوامع** للسيوطي، الجزء الأول، ص ٤١٢، مصدر سابق.

١٢٢ ــ **المغنى**، ابن قدامة، المجلد الثامن، ص ١٨٣، مصدر سابق.

١٢٣ ــ **الشرح الكبير**، شمس الدين عبد الرحمن المقدسي على هامش **المغنى**، المجلد الثامن، ص ص ١٩٤، ١٩٥، مصدر سابق.

١٢٤ ــ أخرجه عبد الرازق في **مصنفه** والبيهقي في **السنن**. نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** للكاندهلوي، المجلد الثاني، ص ٥٣، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٩م، الناشر: دار الوعي، حلب.

١٢٥ ــ **بائخة** أيْ فاترة، **ساكنة**، منطفئة، وفي **المعجم الكبير** لمجمع اللغة العربية، الجزء الثاني، حرف الباء، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ــ **باخت** النار سكنت، فترت، انطفأت.